رواية

علاء الشيمي

وداع

Mohamed Ibrahim

عصير الكتب

بسم الله الرحمن الرحيم

رواية

وادٍ الأوجاع

علاء الشيمي

جميع الحقوق محفوظة © عصير الكتب للنشر الإلكتروني

http://book-juice.com

رواية

وداع

المؤلف:علاء الشيمي

نشر في :سبتمبر ٢٠١٦

تصميم الغلاف: محمد إبراهيم

تنسيق داخلى : عصير الكتب للنشر الالكترونى

يجب أن نبكي حين يولد الناس، لا حين يموتون.

مونتسكيو.

إهداء

إلى التي أكتب عنها دومًا، ولا تقرأ لي...

صيف عام ٢٠١٢

لما حلَّ الليل، وتسلل السكون إلى جنبات المكان، واكتست الجبال بظلمة حالكة، تأهبوا للخروج في خوف ورجاء. خوفهم كان نابعًا من هذا الطريق الموحش الذي سيكابدونه طوال رحلتهم، ورجاءهم أن يصلوا في سلام إلى لبنان دون أسر أو اعتداء.

كانوا يقفون في صمت حول رجل طويل القامة، أجش الصوت، معلقين أعينهم به، قلوبهم تدق في عنف كأنها طبول حرب، فيُهيأ إلى الرائي من صمتهم وخشيتهم التي ألمت بهم، أنهم كانوا يشيعون جنازة فقيد منهم، أو أنهم كانوا يدركون أن موتهم أقرب لهم من وصولهم إلى لبنان في أمن وسلام.

من بينهم كان يقف شابًا في العقد الثاني من عمره، حانت منه اِلتفاتة نحو حبيبته، فتملكه الحزن والأسى على هذا السفر الذي سيباعد بينه وبينها إلى الأبد ربما. ظل

ينظر إليها دون إصغاء إلى تعليمات المهرب ذو الصوت الأجش، حتى تلاقت عيناهما، ورأى الحزن والخوف باديًا في عينيها البنيتين. فتمالك نفسه، ورسم على وجهه في مشقة ابتسامة صغيرة نجحت في خداعها، فظنت أنه يطمئنها.

أمرهم المُهرب ألا يحدثوا صوتًا في طريقهم، نظر إلى الشاب، فوجد ساعة تُزين معصمه، قال له بصيغة آمرة:

-اِخلع ساعتك.

كان الشاب يعلم أن وجود شيئًا كهذا في معصمه من الممكن أن يكشف تحركاتهم ويفضح وجهتهم؛ لذلك خلعها في تفهم وهدوء، فاستمر المُهرب يقذف بتعليماته والناس حوله، يتلقونها في صمت واِنصات، كأن طوق النجاة يتمثل فقط في الامتثال إلى تلك التعليمات.

معي ستكونين بأمان. قال لها ذلك. لكن الطريق بين سوريا ولبنان موحش صلب، عنيف في نتوءاته وأحجاره، كأن هذا الطريق لم يسلكه بشري قط، وهذا المسكين ظن أن

مرافقته لها بمذهبه العلوي وكليته العسكرية، سيجعلها في مأمن حتى تصل إلى لبنان في سلام.

انتزعه صوت المُهرب حين قال:

-ويجب أن تنصاعوا لأوامر المرافق.. فأماكن الخطر لا يعلمها إلا هو..

أومأوا له في صمت، فخرج المرافق بعدما أذن له المهرب بالانطلاق بإيماءة من رأسه، ولحق به الهاربون من الجحيم يقتفون أثره في صمت وسكون.

في الطريق، وقع أقدامهم على الحصى الشيء الوحيد الذي يمكن سماعه وتمييزه في هذا المكان الخلاء، الذي يبدو في ظلمته ووحشته أنه أرضًا غير الأرض التي نعيش عليها. كانت تسير عن يمينه بعيدًا عنه قليلًا، لما نظر إليها لم يستطع تمييز وجهها الوضاء من ظلمة الليل، فعاد ينظر إلى طريقه في حنق وضيق.

هي ليست علوية، لكنه أحبها رغم اختلاف المذاهب بينهم. تذكر ذلك اليوم الذي فيه وطأت قدمها حيه، داعب الهوى قلبه يوم أن رآها عائدة من مدرستها، نظر إليها وهي

تمر من ملعبه، فعجز عن ركل الكرة التي كانت بين قدميه، وعجز عن إجابة أصدقائه، وعجز عن التفكير في أي شيء، كل ما استطاع فعله أن ينظر إليها وهي تقطع مكان ملعبه متجهة إلى منزلها الجديد.

حبه منها كان يتملكه، وكانت تستحوذ على قلبه وخواطره كأنها غازية غزت قلبه في سلاسة ورفق. فذهب إلى أبيها ليطلب الزواج منها، لكن والدها خيب آماله وهَدَّم طموحاته ورفضه في حزم.

تذكر ما حدث لوالدها في الليلة السابقة، وسأل نفسه في تحير، كيف حاله الآن؟ هل سينجح والده في إخراجه من المعتقل حتى يلحق بأسرته إلى لبنان، أم سيظل هناك حتى يواريه الزمان.

نظر إليها وهي تشق الطريق في تعب وإجهاد كأنها تنازله، فتذكر لحظات معها تمنى أن يتوقف الزمن عندها. قال في نفسه (الماضي لا يحلو، إلا إذا كان الحاضر مُرًا).

قال لها ذات يوم:

-أنتِ ملكتي... وحياتي لن تقوم إلا بك... وبيدك الحنونة سترسمين مستقبلي.

قالت له:

-أشعر أني ملكة لأن الله وهبني حبك.

ابتسم، ووضع إصبعه على أنفها مُداعبًا، كأنه يشكرها على كلامها، فابتسمت له بعينيها البراقتين.

رأى الشابُ التعبَ باديًا على وجه الفتاة وأمها، طلب من المرافق أن يستريحوا قليلًا، فرفض الرجل في حزم حتى أوشك الشاب الدخول معه في نقاش محتدم، لكن والدتها منعته عن ذلك في رفق، وقالت له:

-لا بأس يا ولدي، سأكمل.

هذه المرأة قريبة إلى قلبه، عزيزة عليه. تحدثت معه يوم أن رفض زوجها طلبه، ووعدته أنها ستحاول إقناعه، وأخذت منه عهدًا بألا يقابل ابنتها حتى يكون هناك شيء شرعي بينهما. فوافق الشاب على ذلك، وشكر تلك المرأة؛ لمجرد

أنها منحته أملًا جديدًا. لكنه نكث هذا العهد، فكان يشعر بالألم كلما قابل حبيبته، وكان حبه لها أقوى من ضميره.

التلال تحف السائرين والسماء بنجومها تكاد تفضحهم. خجل من نفسه لما أجهده السير بجسده المتين وعضلاته البارزة، فكابد الطريق في قوة وإصرار. أما تلك المرأة الواهنة، فلن تقدر على السير أكثر من ذلك، يجب أن تستريح قليلًا. طلب مرة أخرى من المرافق أن يستريحوا، فرفض المرافق طلبه مجددًا، وحذره أن الجنود يقفون فوق تلك التلال، وأن أصواتهم يجب أن تكون خفيضة. لكنهم رغم ذلك تشاجرا معًا وعلا صوتهما.

لما سمع الجنود تلك الأصوات، انهالوا عليهم ببنادقهم بلا رحمة، فشقت رصاصات العذاب سكون الليل، كأنها الرعد المنذر بالهلاك، وأصابته طلقة في كتفه الأيمن، فأردته على الأرض جريحًا.

في المشفى، والده كان يجلس عند رأسه. كان عميدًا في الجيش السوري، رُجلًا على مشارف الخمسين من عمره، في بذلة عسكرية، خط المشيب شعره، ينظر إلى ابنه في صمت يشوبه قلق مُضني.

لما عاد إليه كامل وعيه، زايله القلق، ولاحت عنه ابتسامة تنم عن الطمأنينة وتوشي بالرضا، قال له:

-حمدًا لله على سلامتك يا بني.

أجاب الفتى بهمهمة غير مفهومة. استجمع شتات قوته وسأله عن حال حبيبته، قال:

-لم نجد لها أي أثر.

صمت والده قليلًا، ثم أكمل:

-انظر ماذا جنيت من مرافقتك لها!

قال الفتى بصوت ضعيف، كأنه يخشى على صدره التمزق:

-لا فائدة من هذا الكلام الآن يا أبي.. أريد أن أعلم إن كن بخير أم لا؟

-كما قلتُ لك.. لم نجد لهن أثرًا.

اغتم الفتى. ظن أنه معافى، فحاول القيام ليبحث عنها، فمنعه والده، قائلًا:

-يحيى اهدأ.. سأبحث عنها.. يجب أن تستريح.

سأل والده:

-هل خرج والدها؟

-نعم... خرج في نفس الليلة التي خرجتم فيها للهروب... ربما يكون في لبنان الآن.

تركه والده بعد أن اطمئن على سلامته، شعر أنه وحيد بعد مغادرته، فتذكر أمه التي ماتت منذ ثلاثة أعوام، فرقَّ قلبه حزنًا على فراقها. نظر إلى جسده، والأجهزة التي تتصل به، والجرح المغطى في كتفه. فتذكر ما حدث وفقدان حبيبته، فأغمض عينيه وتمنى الموت.

القاهرة

كان الفتى يجلس على مكتبه في هدوء وانكسار، وكان يبدو من الهالة السوداء التي حول عينيه أنه لم ينم منذ يومين أو أكثر، وكان يبدو من بياض عينيه الذي تحول إلى اللون الدامي، أنه بكى حتى ظن أن أدمعه نضبت من كثرة بكائه.

كل الأمور التي حدثت له خلال الشهور الفائتة كانت عصية عن الفهم والتفسير. فشعر في لحظة ما بتفاهة تلك الحياة التي يعيشها، وأخذ على نفسه عهدين، أخذ عهدًا بأن ينهي تلك المهزلة، وعهدًا بأن يكتب ما حدث لعله يستريح قليلًا. كأنه ينشد أي راحة في تلك الدنيا، قبل أن ينشد الراحة الكبرى والأبدية.

نظر إلى الأوراق البيضاء التي كانت تحت يديه، والتي تحولت أجزاءها إلى الأصفر جراء يديه المعترقتين. وحمل نفسه على الكتابة في كبد ومشقة، كما يحمل نفسه على الحياة.

كتَبَ:

كان وجهها شاحبًا في تلك المرة، ألقيتُ عليها التحية، فردت باقتضاب، لما اعتذرتُ لها قالت جملة واحدة. (أنا لم أحبك قط). نظرتُ إليها في وجوم، شعرتُ أني لا أرى شيئًا إلا

السواد، كنت حقًا لا أرى شيئًا، تدفق الدم بغزارة إلى وجهي فانطفأت الأشياء من حولي، وما عدتُ أرى إلا السواد.

(أنا لم أحبك قط). لكن ما هذا الشوق الذي كنت أراه في عينيك كلما تقابلنا، ما هذه التلقائية التي كنتِ تتحدثين بها معي، ما هذا الغضب الذي كان يجتاحك عندما كنتُ أغيب عن الشرفة يومًا أو بعض يوم، أخبريني ما لهذا التهكم لا يخرج بين ثنايا حديثك إلا عندما كنتُ أحدثك عن إحدى تلك الفتيات التي كانت تعجبني.

بنيتُ على تلك الفتاة آمالًا كثيرة، دلتني على الحب بعدما ضللتُ، وجعلتني أؤمن به بعدما كفرت. لكنها تخلت عني بعد أن آمنتُ بالحب معها.

(أنا لم أحبك قط). قالت تلك الجملة بفتور، كأنها اعتادت قولها آلاف المرات، وكمن يسقط من على جرف هاو، سقطتُ في غياباتي. وغاب عني ميقات الأيام والشهور. كنت حزينًا على فراقها وحزينًا على حبي لها، لم تنجح أختي في مواساتي كنت أستمع إليها في صمت.

–لمى تحبك يا مُهاب، ولا أعلم لماذا فعلت ذلك، لكنها تحبك

رفع الشابُ قلمه من على الورقة الممتلئة بمداد حبره الأسود، الذي لا يختلف كثيرًا عن حكايته السوداء. ونظر إليها في استياء، ثم قال في نفسه:

-يجب ألا تجري الأمور هكذا... يجب أن أبدأ من البداية.

الفصل الأول

في أحد أيام فصل الخريف، نسمات من الهواء البارد انسابت من خصاص الشرفة، داعبت عقلي الغافل، فدب الانتعاش فيه، وسرتْ اليقظة في أعماقي، وتساقط الخمول كقطع الدمينو. السابعة والربع من صباح يوم الإثنين لخريف عام ٢٠١٢. عندما فتحتُ شرفتي المُطلة على الشارع، تسلل الهواء البارد إلى الغرفة، كأنما يدخل طاردًا بعض الدفء والهواء الفاسد الموجود في أنحائها، واستنشقتُ هواءًا نقيًا طرد ما تبقى لدي من أكسدة.

في حالة سيئة تعادل سوء السماء المُلبدة بالغيوم في الخارج، عمدتُ إلى إحضار الطعام قبل الخروج إلى الكلية. وقمت بإشعال الراديو؛ لأستمع بعض الأغاني وشيء من عناوين الأخبار. تلك عادة تعودتُها من جدي–أطال الله عمره– فكان يواظب على الاستماع إلى الراديو كلما نهض من فراشه كل صباح.

تمايلتْ رأسي، وطرُب قلبي ممتلئًا بالنشوى، حين وجدت عزت عوض الله يغني:
(ياما قالوا ف الغرام، وكتروا الكلام، وأنا قولت كلمة واحدة... بحبك والسلام).

أثناء تلك الأغنية، اعتراني بعض الفكر، وتملك مني التدبر، ووجدتُ نفسي أفكر في الحب، ذلك الشعور المبهم الذي ينسج منه الشعراء قصائدهم، ويستوحي به الموسيقيون ألحانهم الخالدة، ويستقي منه الكُتَّاب والمفكرون موضوعاتهم وحبكاتهم... ويستعين به عامة الناس على شقاء الحياة وبؤسها.

هل كل أولئك الناس ينعمون بالهوى وينهلون من رحيقه المُسْكر، أم أنه شيء نبيل لا يصل إليه إلا القليل، فما للبقية إلا أن يتناولوه ويتخيلوه حتى تستقم لهم الحياة. كأنه يشبه مصطلح العدالة الاجتماعية، الجميع يتحدث عنها على الرغم من انعدامها.

في ذلك الوقت تذكرتُ إسراء وهذا الموقف المبهم الذي اتخذته حيالها، فانقبض قلبي، وازدردتُ اللقمة التي كانت في فمي بصعوبة، وتناسيتُ الموضوع متجنبًا التفكير فيه، حتى لاح في ذهني ما قرره عُمر بالأمس، حين أخبرنا أنه لا مفر من البوح عن حبه أمام شروق، حتى لا يخسرها. اتفقتُ معه أن يصارحها بكل شيء، بعد أن تقدم لخطبتها أكثر من شاب في تلك الفترة. كنتُ أتمنى أن يبوح بحبه قبل حدوث كل ذلك، لكنه تمهل وتباطأ حتى ظننت أنه لن يبوح به إلى الأبد.

كان عُمر يجنح إلى قلبه دائمًا، ويلتمس ألف عذر لأي شخص، حتى لو لم تكن هناك صلة تجمعه به، كان يردد دائمًا:

-لماذا ندع لقلوبنا الفرصة لنبغض أحدًا لمجرد كلمة قالها أو موقف اتخذه منا، على الرغم من أننا قد نقول نفس الكلمة أو نتخذ نفس الموقف دون قصد أو لسبب فرضته الظروف علينا.

هكذا، ظللت شاردًا لبعض الوقت إلى أن وجدت المذيع يمهد لنشرة الأخبار، وكالعادة كانت أخبار الانتفاضة السورية تسيطر على رأس كل نشرة، حينها قال المذيع:

-لبنان تطلب مساعدة الأمم المتحدة، بعد تدفق آلاف من اللاجئين الهاربين من الحرب الدائرة في سوريا إلى أراضيها.

كانت كل الأخبار والمعلومات التي تأتي من سوريا، تشير إلى أن الأمور هناك تتجه لمزيد من التعقيد، خاصة بعد أن بدأ يلوح في الأفق-كما أراد النظام- حربًا طائفية تدور رحاها هناك.

لما وصلتُ إلى الكلية، رأيتُ عُمر جالسًا على إحدى درجاتها، سابحًا في تخيلاته وأفكاره، ببشرة قمحية اللون، وشعر طويل بدون إسراف، وعيون شديدة السواد.

لما جلستُ بجواره، قلت له:

-الأوضاع هناك في تدهور كما توقع طارق.

-أين؟

-سوريا!

لم أجد في نفسه استجابة لهذا الموضوع الذي شغلنا كثيرًا في تلك الأيام، ولم تحرك الأخبار الأخيرة حوافزه للحديث، فسألته:

-أمازال موضوع شروق يشغل تفكيرك؟

-وهل هناك موضوع غيره يا مهاب!

-أنت ترهق نفسك بمثل هذا التفكير.. الموضوع أبسط مما ترى.

-أتعتقد ذلك؟

-نعم... الموضوع لا يستأهل.. ما هي مخاوفك؟

سكت كأنما يفكر فيما يجب قوله، وأضاف:

-أخشى خسارة شروق.

-أي خسارة تخشاها؟!

-أقصد... الصداقة التي بيني وبينها.

-قد تكون على حق إذا كنت ممن يقنعون بالقليل.

-كأني كذلك فعلًا... يا لسوء حظي!.... أخشى من تأثري بك يا مهاب.

-أي تأثير تقصد؟

-موقفي هذا يشبه موقفك مع إسراء.

باغتني، وظللتُ صامتًا حتى أدركت نفسي، ثم قلت له:

-موضوعي مع إسراء يختلف كثيرًا... إني نشأتُ معها في أسيوط، ولستُ متأكدًا من شعوري نحوها... إني أحيانًا....

تلعثمت، ثم قلت له:

-أحيانًا أشعر أن تعلقي بها يعود إلى التعود!

ظللت أتحدث معه دون انتباه؛ حديثه عنها أخذني إلى لحظات شعرتُ بأبديتها. لحظة النظر إلى عينيها العطوفتين وابتسامتها التي كانت تحتضن قلبي برقتها وعذوبتها. ولحظة ضحكتها الراقصة التي كان يفوز بها قلبي، كلما خرج من ثنايا حديثي سخرية أو تهكم على حدث أو شيء بيننا. ولحظة تلامس يدي ويدها دون قصد، فيرتعش قلبي حبًا وتحنانًا. واللحظة التي كان ينظر فيه بعضنا إلى بعضه دون حديث، فيرى كل منا ذاته من خلال الآخر.

تذكرتُ عندما كنا صغارًا نلعب ونمرح معًا، كانت بارعة في اختراع الألعاب التي كنا نلعبها، تذكر لي دائمًا روميو وجولييت، وكنت لا أعرفهم، عندما سألتها عنهم، ردت بصوتها الطفولي:

-شخصان ظلا يحبان بعضهما حتى ماتا.

-لماذا يتمتعون بشهرة كبيرة؟ أسمع أشخاص كُثُر يتحدثون عنهما.

-لأنهما ظلا يحبان بعضهما حتى ماتا!

-هل أنا وأنتِ سنصبح مشهورين مثلهم؟

ابتسمتْ، وأشارت إلى فمها بالسبابة، وقالت بصوت هامس:

-عيب.

مرت تلك الذكريات على ذهني كرائحة طيبة خطفت الأذهان، ثم تناثرت في الهواء وتلاشت. وظللت شاردًا، أتحدث باقتضاب مع عمر، حتى وجدتُ شروق مقبلة نحونا، فتنبهتُ إلى إقبالها بابتسامتها الرقيقة، وبشرتها المشدودة البيضاء، وشعرها ذهبي اللون المنثور فوق كتفيها.

لما تنبه عُمر لمجيئها، تهلل وجهه، واعتدل في جلسته، قائلًا:

-جاءت... لا تتحدث في الأمر.

لما رأيتها تذكرتُ ما خبرتني به منذ أيام، يوم وجدتها شاردة، وتحتدم في كل نقاش يخص مشروع التخرج، كأنها في مبارزة، فسألتها في ذلك اليوم عن سبب ضيقها واحتدامها على غير عادتها. فنظرت إلي في تردد، وقالت:

-لا شيء.

صمتُ، ونظرت إليها مرة أخرى، وسألتها ما بال العريس الذي تقدم لخطبتها. نظرت إلي في اضطراب، وهمهمت بكلام غير مفهوم، ثم سألتني:

-هل ترى الجمال نعمة؟

-أكيد.

-لكن تعامل الناس مع تلك النعم قد يجعلك تشعر أنها نقمة!

-ماذا تقصدين؟

-أقصد تعامل الناس الخاطئ مع بعض النعم قد يجعلها نقمة على من يملكون هذه النعم.

-كلامك غير منطقي!

-أنت تظن ذلك... أنت قلت الجمال نعمة، أتفق معك تمامًا، ولكن تعامل الناس معي يجعلني أشعر أنه نقمة.... كل من يتقرب مني يا مهاب. يتقرب من أجل منظري فقط، يتعاملون معي كأني دمية، كأني صورة بدون مشاعر أو اهتمامات أو أحاسيس... كل شاب يتقرب ويتودد إلي لا يفعل ذلك إلا لجمال صورتي، وطلاوة هيئتي. فلا تجد أحدًا يتقرب مني لرزانة عقلي، أو لطيبة قلبي، أو حسن طباعي. أشعر أني تافهة لا قيمة لي، لا أحد يهتم بأي شيء مما أقوله، أو أي فكرة أطرحها، إنهم يحبون السطح ولا يشقون على أنفسهم بأن ينظروا إلى أعماق نفسي.

بُهتُ من كلامها، وشعرت بمدى سذاجتي يوم اعتقدتُ أن كل ما تطلبه الفتاة وتتمناه هي أن تكون جميلة المُحيا، حسنة القسمات، فيلتف حولها الشباب، لتجلس واضعة رجلًا على أخرى لتختار أيهما يكون زوجًا وأنيسًا.

قلتُ لها في ذلك اليوم:

-أنت فتاة ذكية، وأرى فيك جمالًا داخليًا لا يراه إلا الأذكياء، وبذكائك تستطيعين أن تفرقي بين من يحبك لجمالك الداخلي، ومن يحبك لجمالك الخارجي فقط.

قالت:

-ربما لا أملك إلا الجمال الظاهري.

-جمالك الداخلي موجود فيك بلا شك، ولكن المشكلة أن جمالك الخارجي يحجب ما تملكين من جمال داخلي، فلا يراه إلا ذوي الحس الرفيع... وإذا كنت تريدي إظهار هذا الجمال عليكِ أن تقرأي كثيرًا حتى يكون لك رأيًا في كل شيء في هذا العالم، أو ابحثي لنفسك عن موهبة...

صارحتني بأن هناك عريسًا آخر تقدم لها، لكنها رفضته كما رفضت من سبقوه، قالت لي (لا يعجبه شيء في إلا شكلي ومنظري)؛ لذلك أوعزتُ إلى عمر ليخبرها بحبه لها، حتى لا يندم بعد، لكنه أخفق وتراجع. كان يظن أنها ستتقرب إليه تلقائيًا إذا كانت ترى فيه الصفات التي ترغبها في شريك حياتها!

كانت رغم ذلك مترددة في رؤيتها، فكانت متمسكة بالزواج من شخص فيه الصفات التي ترغبها، لكنها أيضًا تنظر في ندم إلى أولائك الخاطبون التي ترفضهم، وينسلّون من بين أيديها واحدًا تلو الآخر.

***

عدتُ منهكًا إلى منزلي وقت الأصيل، لكن هذا الانهاك لم يمنعني من شراء المذكرات التي طلبتها مني أختي دينا. كانت طالبة في الشهادة الثانوية، وعلى الرغم من أناملها البارعة في الرسم والتصوير، إلا أنها كانت تتمنى الالتحاق بكلية الطب!

نقرتُ على الباب نقرات متتابعة، وتوقفت بعد أن سمعت أصواتًا صادرة من الداخل لا تألفها أذناي. ظننتُ أول الأمر أن والدي يستضيف بعض أقاربنا من أسيوط، فشعرتُ بالسعادة وأخذني الحنين إلى القرية وأهلها. لكن لما فتح والدي الباب، وجدتُ وجوه غريبة لم أرها من قبل، ولهجات هي أبعد ما تكون عن لهجة أقاربي بأسيوط. ابتسم لي أبي، وبادرني قائلًا:

-عودة حميدة... لدينا ضيوفًا... من سوريا.

نظرتُ إليه في ذهول وعلت نظرات مستفهمة على وجهي، ولم يبالي. تركني ذاهبًا إلى ضيوفه دون أي توضيح. اِلتفت إلى الصالة، فرأيتُه ووالدتي يجلسان على كرسيين متجاورين وعلى يمينهما بعض الشخوص. كان أولهم رجلًا في الخميسن من عمره يجلس على كرسي مجاور لوالدي، ذا شعر شديد البياض، ولحية خفيفة بيضاء.

أقبلت إليه محييًا، والدي قال له:

-هذا يا أخي، ولدي مهاب، طالب في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية.

صافحتُ الضيف، بينما قال والدي:

-هذا عمك أبو مروان من سوريا... من أصدقائي القدامى يا مهاب، وهذه أسرته، أم مروان، ولمى، ومروان.

صوبت نظري إلى أسرته متمتمًا ببعض الكلمات مرحبًا بهم. ثم جلست بجوار أبي بعدما وضعت حقيبتي وراء الكرسي الذي جلست عليه. وأخذتُ أتفحص أفراد تلك الأسرة الذي كان باديًا على وجوههم أثر السفر والتعب والإجهاد.

كان من البدهي أن أول من سيجذب أنظاري وسيستأثر بها قبل أي شيء
هي تلك الفتاة الحسناء التي كانت تجلس عن يميني، كانت تبلغ من العمر تسعة عشر عامًا، ذات عينين بنيتين صافيتين، وبشرة بيضاء كالثلج، ووجه جميل المنظر حسن القسمات، ذات خدود وردية بارزة كأنها منحوتة، وفم غاية في الصغر، وشعر ناعم مائل إلى الأصفر ظهرت بعض خصلاته من حجابها الأسود الذي يلف وجهها الأبيض كالبدر المضيء في قلب السماء المتشحة بالسواد.

كانت تجلس في وحدة وانعزال، لا تُشارك الباقين الحديث، ولا تصغي لهم السمع، والحزن كان باديًا في عينيها البنيتين، كأنها عاشت في سوريا سنوات فوق سنوات من الحرب والقتل والدمار.

نظرت إلى باقي الأسرة، فوجدت مروان، الذي كان من الواضح عليه أنه لم يبلغ العاشرة بعد، كان يجلس في احترام، كأنه ليس طفلًا، كأن أهوال ما لقيه في بلده قد جعل منه غلامًا فتيًا. كان يجلس بجوار والدته التي كانت تشبه في أحيانٍ كثيرة ابنتها الحسناء.

كان الكبار يتحدثون ويتسامرون، في حين كنت أتأمل أفراد هذه العائلة في تأمل صامت، حتى نطق أبي اسمي على حين غفلة، وقال:

-عمك أبو مروان يا مهاب من أعز أصدقائي عندما كنا في العراق في الثمانينات، ظللنا نعيش معًا قرابة ست سنوات، ولكن فرقتنا الأيام بعد ذلك، وها نحن نجتمع ثانية.

أردفت على قول أبي:

-مرحبًا بك يا عمي... نورت مصر.

رد الرجل التحية في صوت رزين:

-مصر منورة بأهلها الطيبين يابني.

وذهبت إلى غرفة أختي بعدما استاذنتُ من الضيوف متعللًا بخلع ملابسي؛ كي أعطيها المذكرات التي جئت لها بها من المكتبة. ولما لم أجدها، ذهبت إلى المطبخ، فوجدتها تقوم بتحضير بعض المشروبات، اقتربت إليها هامسًا على الرغم من سعة الشقة وبُعد الضيوف عنا، وسألتها:

-ما الحكاية؟

اِلتفتت إليّ بعينيها السوداوتين، وبشرتها القمحية، ثم نظرت إلى المذكرات التي في يدي، وقالت باطمئنان:

-أسرة من سوريا، كان ربها صديق قديم لوالدك.

سألتها:

-كيف التقيا؟

-وجدهم والدك يبحثون عن تأجير مسكن لهم، فعرف صديقه وأتى به إلى هنا... والدك عرض عليه السكن في شقتنا المجاورة حتى تهدأ الأمور في سوريا.

قلت بحسن نية:

-نعم الرجل أبي!

نظرت إليّ في ارتياب، وقالت:

-نعم.. عطوف مثل عطفك على لمى!

أدركتُ أنها تقصد الفتاة الحسناء، فقلت لها:

-دعك من سوء الظن هذا... اسمها لمى؟

-نعم.

سكتُ مضطرًا، لكني ما لبثتُ أن اندفعت قائلًا:

-هل تعلمين لمَ كل هذا الحزن البادي على وجهها ؟

-لا أعلم.

تركتُ أختي بعد ذلك، وذهبت إلى غرفتي التي كانت قريبة من الصالة التي يجلس فيها الضيوف، فألقيت نظرة على تلك الفتاة التي كانت غارقة في التفكير أيما إغراق. ثم دخلت الغرفة

وأوصدت بابها. ومارست أعمالي التي اعتدتُ عليها بعد الرجوع من الكلية، حيث صلاة العصر الذي قد حان موعده، ثم أخذت قسطًا من النوم والراحة إلى الساعة السابعة.

الفصل الثاني

بعد ذلك بأيام، اقترح علينا عُمر الخروج في نزهة، فظننت وقتها أنه سيستغل تلك النزهة حتى يبوح إلى شروق بحبه. فوافقتُ على اقتراحه متمسكًا بالأمل في أن يضع الأمور في نصابها، ووافق طارق، فوافقت شروق واتفقنا أن نخرج ليلًا. ولم نخرج.

ففي تلك الليلة، لما نهضتُ من غفوتي، ذهبتُ إلى الشرفة؛ لأجلس فيها حتى يحين وقت الطعام. وكعادتي رُحت أطالع السماء بنجومها كأنها اللآلئ المنثورة على وشاح شديد السواد، ورحتُ أقلب وجهي في السماء يمنة ويسرة مُذكرًا نفسي بعظم شأن الله وقلة شأننا، إلى أن وجدت شيئًا غريبًا واقفًا غير بعيد في الشرفة المجاورة.

عندما دققت النظر، وتذكرت أمر الجيران الجدد فظنت أنها ربما تكون تلك الفتاة السورية التي سكنت بجوارنا؛ فارتبكت لمجرد شعوري أني لست منفردًا بنفسي، ولكني شعرت بالطمأنينة عندما وجدتها غارقة في تفكير عميق كدأبها، كأنها لم تعلم بوجودي بعد، أو كأنها تجاهلت وجودي من الأساس.

ظللت أنظر إليها، وهي واقفة في الشرفة تنظر إلى السيارات المارة في وجوم، دون أن يلفت انتباهها أو تلتفت إلى شيء، حتى وجدتُ في نفسي رغبة في مُخاطبتها، ففضلت أن تلتفت إلى

وجودي أولًا، لعلها تبدأ الكلام هي. كنت أعلم أنها بشخصيتها تلك لن تنبس بكلمة واحدة إذا لم أبدأ على الأقل الحديث معها، لكني رغم ذلك حركتُ بعض الكراسي في الشرفة مُحدثًا بذلك صريرًا شديدًا، فالتفتت إلي كأنها لم تتفاجأ بوجودي ثم أشاحت بوجهها عني، وعادت إلى وجومها مرة ثانية. شعرتُ بخيبة أمل، ورفضتُ الخسارة، فاندفعتُ قائلًا بعدما رفعتُ يدي مُحييًا:

-مرحبًا.

نظرت إليّ بلا اكتراث، ثم اِلتفتت عني كأني لم أكن أقصدها، ودخلتْ غرفتها. فوجمتُ وظللت أنظر إلى شرفتها في صمت، ثم عدت إلى حالتي أُطالع النجوم.

لما تناولتُ طعامي في تلك الليلة، أحضرتُ كوبًا من الشاي، واتجهتُ إلى الشرفة حتى أتناوله فيها كعادتي. رن علي عُمر حينها، وطلب مني الخروج كما اتفقنا. فأخبرته أني سأرتدي ملابسي فورما أنتهي من تناول كوب الشاي الذي كان في يدي.

اتجهتُ إلى الشرفة عاقدًا العزم على التخلص من كوب الشاي الذي في يدي سريعًا؛ حتى أستعد للخروج والتنزه مع الأصدقاء. وبينما كنت على مشارف الشرفة اِلتفت إلى الشرفة المجاورة، فإذا بي أرى الفتاة السورية في وضع غريب، لكن الضوء الخافت الموجود بكلتا الشرفتين، منعني من التحقق من ذلك الوضع وهذا المشهد الذي كنت أراه.

ولما أمعنتُ النظر، واتسعتْ حدقة عيني، وقمتُ بإشعال الضوء الذي في الشرفة، وجدت مما لا يدع مجالًا للشك أنها تجلس على الدرابزين المحيط بالشرفة، واضعة إحدى قدميها خارجها، بينما القدم الأخرى في الداخل، كأنها تشبه أولائك الذين يركبون الدراجة.

عندما رأيت ذلك المشهد أيقنتُ أنها لا تريد إلا الانتحار، فشعرتُ برجفة تسري في أوصالي، واتجهتُ مسرعًا إلى أقرب نقطة بيني وبين شرفتها لعلي أمنعها من الانتحار أو أقوم بإلهائها إلى أن أرى أيما شيء سأفعل بعدها، وبينما كنت أصل إلى تلك النقطة اهتز مني كوب الشاي، فسقط من يدي المرتعشة منكسرًا على أرضية الشرفة. لم أكترث أو أبالي بسقوطه أو كسره، حتى أني لم أشعر وقتها بالألم عندما غاصت قطعة من الزجاج المكسور في لحم قدمي اليسرى.

كان كل ما يشدني ما تفعله، إذ كانت في هذه اللحظة مُقبلة على إخراج قدمها الأخرى خارج الشرفة، فانطلقت بصوت مرتجف:

-أنتِ.. ماذا تفعلين؟

اِلتفتت إليّ برأسها دون أن تغير من وضعها، ونظرت إليّ نظرة يملأها اليأس والشجاعة والسخط، لكأنما يأس من الحياة، وشجاعة على تقبل الموت، وسخط على كل شيء. ظلت تنظر إلي تلك النظرة، حتى اِلتفتت عني محركة قدميها الإثنتين في الهواء. فقلت لها بصوت هش ضعيف لم أقو على أن أجعله صوتًا قويًا من شدة الموقف:

-اسمعي، لا شيء يستحق هذا، إنك بمثل تلك الفعلة ستخسرين الدنيا والآخرة معًا، ولا شيء يستحق هذه الخسارة، إنك تستطيعين مواجهة أي مصيبة أو مشكلة مهما كانت شدتها..

نظرتْ إليَّ نظرة هادئة منكسرة، نظرة أيل جريح يئن لجراحه، لكنه متشبث بالحياة رغم ذلك، فظننت أنها عادت إلى رشدها. فأكملت:

-ضعي ما قلته في الحسبان، وتذكري أمر والديك، لا تكوني أنانية، لكِ أن تتخيلي مدى الحزن والهم الذي سيغرق فيه والديكِ بسب فقدانك...لا تكوني أنانية... أتسمعين؟

ردت على كلامي بصوت ضعيف متهدج:

-عندما تكون الهموم أكثر من مسرات الحياة... فلا أهمية لتلك الحياة!

قالت هذه الجملة التي كانت أطول جملة سمعتها منها منذ أن رأيتها، كانت تقول ذلك عن اقتناع، اقتناع غير تام، كأنها كانت على غير يقين مما تقول وتحتاج إلى من يرشدها. فكرت لوهلة ثم قلتُ لها:

-كل إنسان لديه بعض الهموم وبعض المشاكل والعثرات، لكن الإنسان الذكي صاحب العقل الصحيح هو من يفكر في حل للتخلص من تلك الهموم والمشاكل، وليس ذلك الذي يفكر في التخلص من الحياة خوفًا من همومه ومشاكله... صدقيني مهما

تكن همومك فحلها ليس عسيرًا... دعك من ذلك الأمر، وواجهي همومك ومشكلاتك، ولا تهربين منها بالانتحار.

أطرقتْ النظر فترة من الوقت، كأنما تحاول إقناع نفسها بما قلت، ثم نظرت إليَّ محركة جسمها وقدميها إلى الداخل، وسلمت قدميها إلى أرضية الشرفة بسلام تاركة الدرابزين في تأنٍ وهدوء.

سارت بضع خطواتٍ، وجلستْ على أرضية الشرفة واضعة رأسها بين قدميها المنحنيتين حتى صدرها، ومطوقة ذراعيها حول قدميها قريبًا من الركبة. فشعرتُ بالطمأنينة وتنفستُ الصعداء، وما لبثتُ أن وجدتها تبكي في صوت مكتوم كالنشيج.

بكاؤها أدمى قلبي، أحرقه كورقة بالية، دهسته أقدام الحزن والشفقة، ولم يبق منه شيئًا حتى الرماد. وظننت من بكائها وعطفي عليها أن هناك صلة تجمعني بها منذ سنوات، من نغمة الحزن في نشيجها، ومن جسدها المهتز، وشهقاتها، ظننتُ أني أعرفها جيدًا، وأنها أقرب الناس مني.

ظللتُ واقفًا في الشرفة، كجندي يقف على الحدود دون سلاح، أنظر إليها وهي تبكي دون حديث. فكرتُ فيها، وفي هذا السبب الذي قادها للانتحار، ما أكثر الأسباب والظروف التي تجعل فتاة مثلها ذاقتُ مر الغربة والترحال، والتفحت بنار الحرب، لتجعلها تنتحر.

ظننتُ لوهلة أنها ربما مصابة بمرض عقلي، لكني سرعان ما تذكرتُ كلماتها (عندما تكون الهموم أكثر من مسرات الحياة... فلا أهمية لتلك الحياة). فاستبعدتُ مرضها، ورُحتُ أفكر في كل الأشياء الكفيلة بجعل المرء يفكر في الانتحار.

رنات هاتفي انتزعتني من بئر التفكير والوجوم، نظرتُ إلى الهاتف في ذهول. عُمر يتصل بك. لا قيمة لنزهة الآن يا عُمر فهناك دماءًا ستسفك، وروحًا ستُزهق، وأملًا سيوأد، وابتسامة ستنطفئ إلى الأبد، إذا كنتُ أنانيًا، وتخليتُ عن مكاني الآن.

-لماذا تأخرت؟
-لن أستطيع الخروج الآن يا عمر.
-أتمزح؟.. ألم نتفق على الخروج منذ قليل.
-هذا صحيح، ولكن حدثت ظروف.
-ظروف؟؟ ما لصوتك؟!
-سأخبرك غدًا في الكلية.

هدأ نشيجها بعدما أنهيتُ المكالمة، رفعت رأسها، وقالت:
-اذهب إلى ما أنت ذاهب إليه.

لم أتوقع منها مخاطبتي، قلت لها:

–لست واثقًا من أنك لن تعودي إلى ذلك... وما كنت ذاهبًا إليه ليس على درجة من الأهمية.

لتفتت عني في عدم اكتراث. عندئذٍ فقط، شعرتُ بقطعة الزجاج المغروسة في جانب قدمي، وشعرتُ بلزوجة الدم على أرضية الشرفة. فرفعتُ ساقي على الكرسي، وانتزعتُ شرذة الزجاج المتلونة بدمائي، ثم سحبت كرسيًا إلى المنطقة القريبة من شرفتها، وجلست موليًا وجهي شطر شرفتها، حتى أستطيع رؤيتها بوضوح إذا ما عادت إلى محاولة الانتحار مرة أخرى.

في ذلك اليوم، شعرتُ أن ملك الموت يطير فوق عمارتنا، يحلق ويحوم حولها منتظرًا اللحظة التي يقتلع فيها روح تلك الفتاة النابضة المترددة بين حب الحياة وكراهيتها، فانتابتني الرهبة، وتملك مني الفناء، واحتل الخوف والإشفاق قلبي، وشعرتُ لوهلة أن تلك الليلة المُقيتة لن يكون لها نهار.

لم أنتوي النوم بالشرفة في تلك الليلة، كل ما فكرتُ فيه هو المكوث هناك إلى أن يطول غيابها عن الشرفة. لكني شعرت في لحظة ما وبعد لحظاتٍ كثيرة من اللاشعور، بهواء بارد كالسم يسري في جسدي، ولما فتحت عيناي وجدتُ ضوء النهار يعم ما حولي، فانتبهتُ إلى نفسي مُدركًا المكان الذي فيه، وعلمت أن النعاس قد غلبني أثناء المذاكرة، فنمت كما كنت جالسًا على الكرسي.

لما قمتُ من غفوتي، وجدتُ شرفتها خالية منها، وحمدتُ الله عندما نظرتُ إلى الطريق، ووجدته خاليًا من آثار دماء أو سقوط، فظننتُ أنها عادت إلى رشدها واهتدت إلى صوابها، ولم تحاول الانتحار مجددًا أثناء نومي، فقررتُ ترك الشرفة، وتأهبتُ للخروج إلى الكلية.

لما ذهبتُ إلى الكلية، وجدتُ عُمر وطارق وشروق يجلسون كعادتهم، في زاوية أمام درج الكلية، يتحدثون ويتسامرون حتى يحين مجيء الدكتور وبداية المحاضرة. لما بدوتُ لهم، قابلني الشابان بالصياح والاحتجاج الذي لم يخلُ من بعض الشتائم زعمًا منهم أني قد أخلفت الوعد معهم بشأن الخروج والتنزه في اليوم الماضي.

قلت لهم مُدافعًا عن نفسي:

-لو تعلمون ما حدث بالأمس، لالتمستم لي الأعذار!

سأل طارق:

-وما الذي حدث بالأمس؟

أجبتُ:

-كانت هناك فتاة تحاول الانتحار.

رد طارق ساخرًا:

-يا لحنانك!

في حين قالت شروق:

-يا حرام!

عمر كان باديًا على مُحياه بعض التأثر والانتباه، لكنه لم يُعلق كباقي الأصدقاء، واكتفى كعادته بالانصات والاهتمام. اِلتفت إلى طارق، فقلت له مؤكدًا:

-والله حدث هذا حقًا.

فسألتْ شروق:

-ماذا حدث، ومن تلك الفتاة التي حاولت الانتحار؟

قال طارق مازجًا بين الجد والهزل:

-عرفني بتلك الفتاة، ولن تفكر بالانتحار مرة أخرى يا صديقي.

اِلتفتت إليه شروق، وقالت وهي تستشيط غضبًا:

-دعك من ذلك... أليس لديك قلب؟!

فابتسم طارق ذلك الشاب الذي اعتاد أن يُخرج شروق عن شعورها، كما اعتاد أن يتحمل توبيخها بقلب رحب، كأنه يعلم أن إثارتها وتعكير صفوها ثمن عادل لتوبيخها له.

نظرتْ إليَّ شروق بعدما قامت بتوبيخه، وسألتْ:

-ماذا حدث إذًا؟

قصصتُ عليهم ما حدث بدءًا من مجيء الضيوف إلى النوم والمبيت في الشرفة مرورًا بالحزن الذي تمور به تلك الفتاة ومحاولة انتحارها، فظهرت سيمات التأثر على عُمر الذي كان يتألم حقًا عندما كنت أحكي ما حدث، وكان تألمه كدأبه تألمًا داخليًا لا يكاد يظهر خارجًا إلا من خلال نظرات عينيه شديدة السواد، في حين أن شروق كانت أكثر المتأثرات، وظننتُ أنها كانت تكتم أنفاسها أو تتنفس بهدوء خوفًا من أن يفوتها جزءًا مما قصصت، وبعدما انتهيتُ لمحت في عينيها الزرقاوتين مزيجًا من الحزن والألم.

في حين أن طارق لم يُبد شيئًا أو يحرك ساكنًا، كأنه لم يسمع ما قصصت، فظل جالسًا على درج الكلية يُقلب عابثًا صفحات الكتاب الدراسي الذي كان في يده.

اختتمتُ القصة باستنتاجي بأنها لن تعاود الانتحار مرة أخرى، فقاطعتني شروق قبل أن أكمل ذلك، وسألت في استهجان:

-هل تركتها وحيدة هناك؟

أجبتُ:

-نعم!.. لو كانت ترغب في الانتحار مجددًا، لانتحرت أثناء نومي كما قلت لكم.

قال عُمر:

-كلامك فيه بعض الصحة، لكني أخشى أن تعاود الانتحار مرة أخرى...

زفرتُ في ضيق، ثم قلت:

-ربنا يستر.

قال طارق كأنما سأم الصمت والملل وأراد الاشتراك في الحديث:

-ما هو الشيء الذي يحمل المرء على الانتحار؟.. أقصد.... ما هي الأشياء التي تكون كفيلة بأن تجعل الشخص يُفكر في الانتحار ويُقدم عليه؟

سأل ذلك السؤال كأنه فيلسوف عصره، لكأنما كان يريد إخراج الموضوع من طابعه الإنساني البحت، ليُضفي عليه طابعًا فلسفيًا جدليًا، فخرج عمر من صمته وشروده، وِالتفت إليه قائلًا:

-أنا أقول لك... من يخسر وطنه وأهله وأرضه، وماضيه بحلوه ومره يُفكر ألف مرة بالانتحار، ولكن إيمان بعض هؤلاء القوي بالله يجعلهم يتشبثون بالأمل، من يحاول الانتحار يكون قد فقد تمامًا

الأمل في الله... وعندما يفقد الإنسان الأمل في الله يفقد عقله ورشده.

قالت شروق:

-أنت على حق يا عمر.

ارتسمتْ ابتسامة صغيرة على وجه عمر، ووجدتُ في عينيه غبطةً وسرورًا، وكان ذلك لمجرد أن شروق قد أثنت على رأيه وعضدته.

ولما كنتُ في الكلية، كان يُخيل إلي أني سأجدها عند عودتي غارقة في دمائها على الطريق، ولما تملكتني تلك الفكرة، تركتُ محاضراتي، وعدتُ مسرعًا إلى منزلي، وهدأت نبضاتُ قلبي عندما وجدتُ شرفتها والرصيف القابع تحتها خاليًا من آثار الدماء والسقوط.

ونمى بداخلي مع مرور الأيام شعورًا بالمسئولية تجاهها، ونمت أيضًا نبتة صغيرة من الفضول ارتوت بهواجس وتخيلات كثيرة. لكنَّ نبتة المسئولية كانت أكبر عندي من نبتة الفضول، فنمت وتعاظمت حتى أورقت، فرأيتُ أن أحاول معها حتى تنسى هذا الذي حدث لها في سوريا، بغض النظر عن كنهه، لتتمكن من استقبال حياة سوية في مصر.

كنت على يقين بصعوبة تلك المسؤولية أمام فتاة ساخطة على كل شيء، لكني رغم ذلك قررت عاقدًا العزم على المحاولة معها، لعلها تستريح وتطمئن للحديث معي، فتحكي أحزانها وتنفض لي الغبار عن حكاياتها التي تكتمها بين أضلعها، لعلي أستطيع أن أجعلها تنسى هذه الأشياء لتلتفت إلى حياتها ومستقبلها. ولم أكن أعلم حتى ذلك الوقت سبب إقبالها على الانتحار أو سبب سخطها على الحياة، لكني كنت أشعر بتفاهة أي سبب يجعل الإنسان يخسر دينه ودنياه. (!!؟)

كنت صافيَ النية تجاهها، لا أرغب مما كنت أنوي فعله أي شيء سوى أن تعيش حياةً لا سخط فيها ولا بؤس، لكن صديقي طارق ظن أني أميلُ إليها، قال لي:

-قد تكون أحببتها!

قلت له:

-لا أشعر تجاهها بأي شيء.. أشعر فقط بالشفقة على ما عاشته من أحداث وما واكبته من أهوال... نحن عاجزون عن تقديم يد العون للشعب السوري في أرضه؛ لذلك فمن أقل واجباتنا أن نقدم بعض العون لمن لجأ إلى أرضنا واحتمى بنا.

إنك يا طارق ضيق الأفق، ليس من الضروري أن من يعطف على فتاة ويُشفق عليها، يكون مغرمًا بها... ألم تر أننا نشعر بسعادة بالغة عندما نُحسن إلى أحد ونقدم له شيئًا ماديًا، فما بالك بالسعادة التي يمكن أن نشعر بها إذا وهبنا أحدًا ما الأمل في الحياة، لك أن تتخيل أنك ساعدت شخصًا وحوَّلته من إنسان يسخط الحياة كل السخط ويرغب في التخلص منها، إلى إنسان يرغب في الحياة محاولًا أن يجعلها أفضل وأحسن. لك أن تتخيل مدى السعادة والرضى إذا أقدم شخص ما يا طارق على فعل كهذا.

كيف لي أن أعشق فتاة تكره الحياة وتسخطها ولا ترغب فيها، وأنا أعشق الحياة وأرغبها كل الرغبة. ما كنت أفعله مجرد واجب إنساني. نعم. واجب إنساني مفروض على أي إنسان عاقل، يؤمن بأهمية وثمن الفرصة التي وهبها الله لنا.

كان طارق شخصية غريبة بيننا، كان في تفكيره يجنح إلى العقل دائمًا، لا يعرف عن العاطفة إلا ما يُقيم به علاقاته شبه الجنسية مع الفتيات اللاتي يلتقي بهن. كان يمثل لنا العقل الغارق في ماديته، وكنا نساءل أنفسنا في مزاح، كيف قامت رابطة الصداقة بيننا على الرغم من مسافة الآراء الكبيرة التي تفصل بيننا وبينه، فكان يقول لنا في غير تحرج:

-أنا صوت عقلكم! وأنتم آخر صدى لآهات قلبي الميت!

وكم اختليتُ بنفسي وسألتها عن السر وراء تمسكها الحثيث بطارق رغم ما فيه من آراء وتوجهات تخالفنا، لكني لم أجد ردًا أقنعني، أو مبررًا أزال عني دهشتي. كم جلستُ مع عُمر وشروق وشعرت أن الجلسة ناقصة بغيابه. كم استمعت إلى أرائهم، ونظرت في لهفة إلى عينيه حتى أستمع إلى رأيه المخالف لنا. كأني أطلع على شيء غريب لم أعرفه من قبل.

الفصل الثالث

تراكمت الأيام حتى مر على مجيئها شهر إلا أيام معدودات، وبعد أن خرجتْ إلى الشرفة مرة أخرى، خلال بضعة أيام من محاولتها للانتحار، كانت علاقتي بها لا تتعدى بعض التحيات من يوم لآخر.

وعلى الرغم من أن حال أفراد أسرتها كان في تحسن يريح البال، بعد أن قام أبو مروان بتقنين أوضاعه في مصر، وشارك والدي في إقامة مطعم للمأكولات السورية، ليتكفل والدي بتمويل المشروع مقابل إدارة أبو مروان لهذا المشروع من خلال بعض العمال السوريين الذي كان قد تواصل معهم وجمعهم من أنحاء المدينة، إلا أن حالتها لم تتحسن أو تتقدم، وظللت أنظر إليها في انكفائها وكآبتها التي تبعث على الحيرة والتأمل فأشعر أنها تخفي بين أضلاعها سرًا تريد أن تدفنه معها بموتها.

فكرت في التقرب إليها من خلال التسامر معها بعضًا من الوقت والبوح لها ببعض أسراري؛ لعلها تطمئن لي، وترى أني أهلًا لأن أطلع على أسرارها ومشكلاتها، وأن تعتمد عليَّ في التفاعل معها وحلها. في البداية لم تتجاوب معي، وكانت ترد عن أسئلتي في اقتضاب مُهين. ولما علمتُ من أختي أنها كانت تكتبُ الشعر الحر قبل اندلاع الحرب في بلدها، طلبتُ من صديقي عُمر كتبًا في هذا المجال، سألني في دهشة:

-ما لك والشعر والحر؟!

خبرته بما علمتُ عن موهبتها في هذا المجال، ولم أجد عنده في المدينة الجامعية إلا كتابًا واحدًا، بعنوان (كانت لنا أوطان)! للدكتور فاروق جويدة. كان عنوانًا صادمًا، يعبر عن حالها، بعد أن تلاشى وطنها وتناثر في الهواء.

وقبلتُ هذا الكتاب وأخذتُه رغم عنوانه، عندما قرأت فيه أبياتًا راقت لي. وعندما عُدتُ إلى منزلي، اتجهت إلى الشرفة كعادتي المبتدعة بعد مجيئها، فوجدتها تقف في شرفتها وتتأمل بعض الصبية الذين كانوا يلعبون بالأسفل، فسرت حتى نهاية الشرفة واتكأت على الدرابزين ثم ألقيت عليها التحية، ردت علي في عدم اكتراث كعادتها، فقلت لها:

-علمت من دينا أن لكِ موهبة.

قالت بعد صمت:

-موهبة!

نظرتْ إلى السحب التي كانت تحجب الشمس حينئذ، وقالت كأنها تتحدث إلى نفسها أو تفكر بصوت عال:

-الموهبة لا تنمو وسط القتل والدمار... إنها مثل تلك الشمس لا قيمة لها إذا وجدت السحب.

قلتُ لها بعد استيعاب:

-السحب قد تمنع وصول أشعة الشمس على قطعة من الأرض.. لكنها لا تستطيع فعل ذلك على كل الأراضي.

سكتُ بعضًا من الوقت وقلت:

-قرأتُ في هذا الكتاب..

الشمس إذا سقطت يومًا

ستعود وتنجب ألف نهار.

قالت:

- (اللي ايده بالمي مو متل الي ايده بالنار).

-أشعر بحجم المأساة والدمار الذي تعيشونه، ولكن ليس معنى ذلك أن تحكموا على أنفسكم بالموت... يجب عليكِ أن تتحدي الظروف وتواجهي همومك ومشاكلك... بذلك تستقم الحياة.

قالت بانفعال:

-أنت لا تفهم.. أنت تقول هذا لأنك لم ترَ مدرستي وهي تُدمر، ولا ملعب طفولتنا الفسيح الذي تحول إلى مقبرة جماعية تفوح منه رائحة الموت.... لم ترَ جيراني الذين كنت أجتمع بهم وأطرب لصحبتهم، وقد تحولوا إلى جثث هامدة عفنة ملقاة في الشوارع والطرقات، لم تر مدينة حلب التاريخية بقلاعها ومآذنها وحدائقها وأسواقها وقد تحولت إلى مدينة مهجورة مُهدمة المباني مأكولة اليابس والأخضر، تمتلئ طرقاتها وأركانها بأشلاء الجثث وبرك الدماء.

سكتت، فانعقد لساني عن النطق، ثم قالت وفي صوتها علامات البكاء:

-أنت لم تر مرام... الطفلة التي جاءت إلي يومًا، وهي في غاية الفرح والسرور؛ لأنها حصلت على علامة كاملة في مادة اللغة العربية، فأسرعت إلى منزلها لتريني الورقة، ولم تعد إلى الآن... لم تر كل ذلك.

لم أتحدث، فقط أطرقتُ النظر، فقالت:

-ها أنت تأثرت ببعض الكلام، وما خفي كان أعظم.

كنت أتمنى ألا تقول ذلك، كان يكفي ما قالته، قلتُ لها:

-وهل هناك أعظم من ذلك؟!

-نعم.

-وما هو؟

ذهبت إلى غرفتها تاركة إياي في الشرفة دون أن تقول شيئًا غير الذي قيل. إنكِ يا لمى لتُخفين سرًا عظيمًا علي، وياليتني أعلم ذلك السر حتى أستريحُ من كل الأفكار التي تدور في ذهني. ما

الذي دفعك لمحاولة الانتحار، أهناك حقًا سببًا أعظم من فقدان الوطن لكي ينتحر الشخص؟!

****

بعد أن استعان الفتى بأصدقائه وأصدقاء والده، فشل في تتبع أخبارها ومعرفة هذا المكان الذي ذهبت إليه، وظل يستعين بغيره عدة شهور حتى تعافى، وخرج من المشفى يبحث عنها بلا جدوى.

تذكر ذلك اليوم الذي اجتمع فيه بها، وملأ قلبه أملًا يوم أن تناهى إلى إذنيه وعدها بأنها ستعود إلى سوريا يوم أن تنتهي الأزمة. فوعَدَها هو الآخر بأنه لن يتزوج غيرها، كما وعَدَها أن يكون بجورها حتى تصل إلى لبنان سالمة. لكنه لم يوصلها إلى لبنان سالمة كما وعدها، فظلَّ الألم يعمر قلبه كلما تذكر أنه فشل في حمايتها حتى تصل إلى هناك.

الشيء الوحيد الذي جعله يشعر بالأمل، أنه أخذ منها عنوان صديق والدها اللبناني يوم أن قابلها صباحًا. تذكر الدموع التي اغرورقت بها عينيها البنيتين على فراقه وعلى والدها الذي اعتقل، يوم أن ارتمت بين أحضانه في ضعف وانكسار. وهمست له وقد اختلط صوتها بالبكاء، بالعنوان التي ستذهب إليه في لبنان. الشيء الصحيح الذي فعله، أنه حفظ ذلك العنوان، حفظه عن ظهر قلب.

فكر في السفر إلى هناك، لكن أصحابه باعدوا بينه وبين هذا السفر، أخبروه أن كل الدلائل تُشير إلى اعتقالها، فمن الصعب أن يطلق الجنود سراحها بتلك السهولة.

لكن شيئًا في أعماق قلبه، جعله يشعر أنها وصلت إلى لبنان، وأنها تسكن هناك بسلام، كان يريد أن يطمئن عليها، تلاعبت الظنون بعقله، وظن أنها ماتت، فقرر السفر إلى هناك.

والده كان حازمًا معه، رفض السفر، قال له:

-لن تذهب إلى لبنان... انتظر قليلًا... ربما لا تزال في سوريا.

****

*****

دخل فصل الشتاء ببرودته القارصة، وكآبته المعهودة، وسكونه المفزع المخيف، واستمرت لمى تخرج إلى الشرفة كل يوم تقريبًا، وكانت غالبًا ما تكون حزينة مكتئبة لا تشعر بمرور الوقت ولا تشعر بما حولها.

في بداية تلك الأيام الشتوية، أخبرني طارق في الهاتف أن شروق وافقت على عريس كان قد تقدم لها قبل أيام دون ترو كما كانت تفعل من قبل. فشعرتُ أن أحدًا ضربني على مؤخر رأسي، وتراءى لي عُمر، وهذا الحزن الذي سيغرق فيه عندما يعلمُ أن الحلم الذي يعيش من أجله قد تبخر في الهواء، ولم يبق منه سوى ذكرى تمهله وتباطؤه التي ستطارده طيلة حياته.

(هذا المجنون لماذا لم يخبرها ما دام يُحبها). قال طارق ذلك. لم أرد عليه، وظللتُ صامتًا حتى أنتهت المحادثة. وشعرتُ أن الأفضل هو الذهاب إلى عُمر في المدينة الجامعية، لننظر معًا ما الذي يمكن فعله، لتدارك حماقات تأخره وتباطؤه.

اتصلتُ بشروق في طريقي، في محاولة مني لمعرفة ما إن كانت وافقت على هذا الشخص يأسًا منها، أم أنها وجدتْ فيه الصفات التي لم تجدها في غيره الذين تقدموا لها من قبل. ولما سمعتُ نبرات صوتها الحزين المُختلط بعلامات اليأس، أدركتُ أن هذا الشخص الذي وافقت عليه لا يختلف كثيرًا عن الذين رفضتهم من قبل، قُلت لها:

-مبروك!

تنهدتْ، ثم قالت في عدم اكتراث:

-الله يبارك فيك.

صمتُ قليلًا، وسألتها:

-لماذا وافقتِ؟

-وما فائدة الانتظار؟!

-لماذا تخليتي عن الصفات التي كنتِ متمسكة بها بكل تلك السهولة؟

-كنتُ خيالية وساذجة عندما اخترتُ تلك الصفات.. في الأول والآخر سأتزوج بشخص يعاملني كتحفة فنية... فما فائدة الانتظار؟

أنهيتُ معها المكالمة دون إثمار، وكان أمرًا طبيعيًا؛ بعد أن بدا لي يأسها في نبرات صوتها المتهدج، فعلمتُ أنها لن تحيد عن رأيها خاصة في هذا الوقت.

لما وصلتُ إلى غرفته في المدينة الجامعية، وجدته يغط في نوم عميق، فعلمتُ أن الخبر لم يصل إليه بعد، وشق علي أن أكون أول من يخبره بشيء كهذا، لكني لم أجد مفرًا من إخباره. بعدما أيقظته وخرجت به بعيدًا، سألته:

-ألا تعلم ما حدث؟

-ماذا؟

-شروق.

-حدث لها شيء؟

-تقدم لها عريس... ووافقت عليه.

لم ينبس بكلمة، امتقع وجهه، وتجلى الحزن في صفحة وجهه وفي عينيه السوداوتين، وتفكر قليلًا ثم قال:

-مُبارك عليها!

-أهذا كل ما تستطيع فعله؟

-نعم... طالما وافقت فمبارك عليها!

-أتلومها وهي لا تعلم بحبك لها؟!

-لا... طالما لم أشغل قلبها يومًا، فهي لا تحبني، ولا فائدة من بوحي لها طالما لا تُحبني.

-ومن قال لك أنها لا تحبك؟!

-لأنها تُعاملني كما تُعاملك وكما تُعامل طارق، لو كانت تُحبني لظهر ذلك في عينيها إذا تحدثتُ إليها، أو ظهر من خلال كلامها أو أي شيء آخر.

في ذلك اليوم، تجادلنا كثيرًا، ظل متمسكًا برأيه، حتى نفذ صبري، واشتعل الغضب في أعماقي رغم أني كنتُ أرى الحزن والندم في عينيه، لكنه ظل متشبثًا برأيه قائمًا عليه، لما هممتُ بالذهاب، قلتُ له:

-بأسلوبك هذا لن تتزوج أي فتاة تحبها!

في طريقي إلى المنزل، تملكني اليأس وتسلل الغضب إلى قلبي عندما استرجعتُ ما قاله عُمر. وبمجرد وصولي فكرتُ في محادثة شروق، عسى أن يكون الحل بين يديها. سألتها:

-هل وافقتِ حقًا؟

-نعم!

-أخبرتوا العريس بموافقتك؟

-لا.. أخبرت أمي أني موافقة فقط.. لكنها لم تخبر أهله بالموافقة.

-حسنًا... لماذا لا تخبري أمك أنك مترددة... وأنك في حيرة من أمرك بسبب قرب الامتحانات... وتطلبي منها تأجيل رأيك إلى بعد الامتحانات؟

-لماذا كل هذا؟

-سأخبرك في وقتها.

وافقت، كانت تريد معرفة السبب من هذا التأجيل، لكنها وافقت رغم ذلك. قلت في نفسي ربما يكون شهر الامتحانات مُهلة لاقناع عُمر أو إخبار شروق بكل شيء.

الفصل الرابع

في يوم من أيام فصل هذا الشتاء، بينما كنت أذاكر في غرفتي استعدادًا لامتحان نصف العام، كنت أراقب لمى وهي تجلس مع أختي دينا وكن يتسامرن في صوت هامس، وابتسمت ابتسامة جعلت قلبي يرقص فرحًا وطربًا، كانت المرة الأولى التي أجدها فيها تبتسم، كانت أجمل ألف مرة عندما ابتسمت ولمعت عيناها البنيتان، تلك العينان التي رأيت في أعماقهما سر النشوة والسعادة، وأدركتُ من خلالهما أن المعنى الحقيقي للحياة قد يكمن في ابتسامة كهذه.

قلت لها بعدما عدت من الامتحان:

-ها أنتي تتبسمين مثلنا يا لمى.

نظرت إلي ببعض الاهتمام، وقالت كأنها تتدبر فعلتها:

-لحظة... قد أكون نسيت فيها ما حدث لي.

-ما حكايتك؟! إني إلى الآن لا أعرف قصتك... بوحي لي ببعض ما تكتمينه في صدرك لعلك تستريحي، أو لعلي أساعدك.

- لن تستطيع مساعدتي، ولا راحة لي في هذه الدنيا.

-أمازلتِ تفكرين في الانتحار؟؟

نظرتْ إلى الطريق، قالت:

-أنتظر بعض الوقت لعل الله يرحمني ويقبض روحي، فذلك خير لي من الانتحار.

-ألا تخشين الموت أبدًا؟

-الموت راحة لأمثالنا.

صمتُ بعض الوقت، قلت لها بينما كانت تنظر إلى الطريق في شرود وتتكئ على درابزين الشرفة:

-قولي لي قصتك.

صمتت، كأنها لم تسمع ما أقول، فكررت طلبي وألححت عليها فيه، سألت:

-ماذا يفيدك إذا عرفت ما حدث لي؟

-لدي بعض الفضول! اذكري لي أي شيء في حياتك.

قالت، كأنها تتذكر:

(١)

أذكر آخر لحظات السعادة قبل إندلاع الأحداث هناك... كنت قد انتهيت من امتحانات المرحلة الثانوية، وترقبت نتيجة قبولي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية. كنت أكتب الشعر وأرغب في الالتحاق بتلك الكلية حتى أستطيع أن أنمي موهبتي وأصبح شاعرة

مرموقة؛ لعلي أستطيع أن أكون صوتًا مسموعًا يعبر عن أماني وطموحات شعبه.

وفي يوم من الأيام جلست منتظرة النتيجة وكانت أمي لا تلبث أن تردد دعواتها لي بأن يتم قبولي بالكلية، وكانت حينئذ تجلس بجواري أمام الحاسوب منتظرة النتيجة أيضًا. كانت خائفة ومترقبة أكثر مني... كنت أنظر إليها فأكون أكثر إصرارًا على أن أكون فتاة مرموقة حتى أسعد تلك الأم الحنون.

سكتت، رأيت حبات من الدمع على خديها.

-ما بكِ؟

-لا شيء.

-حقًا؟

-أشتاق إلى أمي فقط.

-أين ذهبت؟

قالت بصعوبة:

-ذهبت إلى بارئها.

-أليست أم مروان أمك؟
-لا.. إنها زوجة أبي.

وهذا سببًا آخر للإنتحار، فقدتْ أمًا ووطنًا، والله يعلم ما إذا كانت تُخبئ مفاجآت أخرى أم لا.

باغتتني تلك المفاجأة، سألتها:
-كانت مريضة أم ماتت إثر تعرضها لحادث من الأحداث؟
-قتلتها قوات النظام.

رأيتُ الدموع على وجنتيها، فشعرتُ بقشعريرة تنتاب أنحاء جسدي، وسكتُ وسكت كل ما حولي. ودخلت غرفتها دون حديث.
في ذلك اليوم، شعرتُ بالحزن، وضاق صدري. لما وضعتُ رأسي على الفراش، سألتُ نفسي، ما ذنب فتاة كهذه تعيش مغتربة بلا أم، مشتتة بين الأوطان، لا وطن لها، ما ذنبها حين قُتلت أمها، وما ذنبها حين تركت أرضها التي ولدتُ فيها وعاشت فوق ثراها، ما ذنبها، وماذا تجني من أطماع هؤلاء وهؤلاء؟

تعودتُ عندما أجتمع مع أصدقائي أن أقص عليهم آخر أخبارها. خاصة أن شروق وعمر كانا دائمًا ما يسألاني عنها وعن أحوالها، هل حاولت الانتحار مرة أخرى؟ ما هو سبب الانتحار؟ كيف حالها الآن؟ ألم تتحسن حالتها؟ وكثير من مثل هذه الأسئلة.

وفي كل مرة كانا يسألاني مثل هذه الأسئلة يكون لدي رغبة حقيقية في التحدث عنها وإيصال آلامها وأحزانها إلى الغير، لعل أحدًا يتفوه بنصيحة أو توصية أوصيها إياها فتساعدها على نسيان ما حدث لها من آلام وعذاب.

عندما انتهينا من الامتحان قبل الأخير في منتصف العام ذهبنا إلى مقهى أمام الجامعة، كنا قد اعتدنا الذهاب إليه من حين لآخر، فجلسنا هناك نحتسي بعض المشروبات ونتسامر حينًا من الوقت.

كانت السماء خارج المقهى ملبدة بالغيوم وكانت هناك نسمات رقيقة من الهواء البارد تداعب أركان المكان. عُمر كان يجلس ويقلب بين يديه صفحات لكتاب عن الثورة البلشفية، وشروق كانت تنظر في هاتفها وتتحدث معي من وقت لآخر، وطارق كان يحدق في فتاة تجلس على طاولة قبالتنا، يتبادل معها النظر والابتسامات من وقت لآخر.

قالت شروق:

-ولمى.. كيف حالها الآن؟

-ليست بخير... حالتي أنا تكاد تزداد سوءًا.

نظر إلي عمر باهتمام، أغلق كتابه ذو اللون الأحمر، وسأل:

-ما الجديد؟!

-أمها قُتلت.

قال طارق:

-سهلة.

قال عُمر مذهولًا:

-ألم تقل لي من قبل أنها جاءت مع والديها؟

-كنت أظن ذلك. لكني علمت أنها زوجة أبيها.

قالت شروق:

-مسكينة!

أطرق عُمر النظر وقال:

-من يدفع ثمن الصراعات على السلطة يكونوا في غالب الأمر إناس لا دخل لهم في تلك الصراعات مطلقًا.

قال طارق مشيرًا إلى الفتاة:

-وقعت!

وتركنا متجهًا إلى طاولتها في خيلاء وتكلف، فنظرتُ إلى عُمر وشروق برهة من الوقت، وأكملنا حديثنا كما اعتدنا عندما يرتكب طارق حماقة من حماقاته.

الفصل الخامس

بعدما انتهيتُ من آخر امتحانات الفصل الدراسي الأول، عُدتُ سعيدًا إلى منزلي منتظرًا بشغف الذهاب إلى القرية كما تعودنا في كل إجازة، فنقضي أيامها هناك بجوار أهالينا وأصدقائنا، ثم ما نلبث أن نعود إلى المدينة بعد بداية الدراسة من جديد. والدي دخل علينا في سعادة في ذلك اليوم، وقال:

–قمت بشراء تذاكر القطار، وسيكون السفر غدًا بإذن الله.

والدي كان يميل ويحن إلى القرية مثلي، كما تحن جذور النخل إلى التربة التي ترعرعت فيها، وما ظننتُ أنه سيترك القرية أبدًا، لو أن كليتي كانت في أسيوط، ولم يأت إلى القاهرة إلا ليوفر علي عناء الغربة والسفر، متوقعًا أن كلية اختي دينا ستكون في القاهرة أيضًا.

انشرح قلبي فرحًا، وارتسمت علامات الرضا على وجهي عندما قال والدي ذلك، وكالأطفال الذين يُسَلون أنفسهم بتمضية الوقت في تحضير وتهذيب ملابس العيد، ذهبتُ إلى غرفتي لكي أُجهز حقيبتي وأستعد للسفر.

أثناء ذلك تذكرتُ لمى وحفاوتي بالذهاب إلى القرية، ومقابلة أهلي وجيراني وأصدقاء الطفولة هناك، وتخيلت ما إذا ذهبتُ إلى القرية فوجدتها دمارًا وإذا بالمكان الفسيح الذي كنت ألعب فيه

عندما كنت صغيرًا مقبرةً جماعية، والترعة التي تُحاذي طريق القرية تمتلئ دمًا لا ماءً، وأصدقاء الطفولة مقطوعي الأيدي والأوصال..

تراءى لي ذلك المشهد المؤلم، كشريط مصوَر يمر أمام عيني، فانقبض صدري، وأغمضتُ عيني كأن ما أراه كان حقيقيًا. عندئذٍ، تذكرتها وتذكرت أني لم أذهب إلى الشرفة كعادتي بعد الرجوع من الكلية، فتركت الحقيبة ذاهبًا إلى هناك. كانت تقف في مكانها الذي اعتادت الوقوف فيه. تتكئ على الدرابزين متأملةً قطع السحاب الذي كاد أن يغطي أركان السماء.

-كيف حالك؟

-الحمد لله.

سكتُ قليلًا ثم قلت لها:

-سنقضي تلك الإجازة في أسيوط.

-نعم... قالت لي دينا ذلك.

-الحق أني متردد بين الذهاب إلى هناك أو المكوث هنا.

-وما السبب؟

-لا أعلم!

استدركتُ قائلًا:

-الحق أني أخشى أن تعاودي الانتحار مرة أخرى.

-ومن قال لك أن وجودك سيمنعني من الانتحار؟

لم أتحدث بعدما قالت ذلك، بل ظللت صامتًا حتى سمعتُ بعضًا من قطرات الماء تقع على الدرابزين، فنظرتُ إلى أعلى، ووجدتُ السحب قد تكاثفت وتراكمت على السماء كما تتداعى الوحوش على فرائسها، وإذا بالسماء تقطر ماءً، كأنها تنزف، فتراجعتُ تحت سقف الشرفة وتراجعت لمى.

كان هذا القطر بداية لهطول الكثير من الأمطار في ذلك اليوم، فما هي إلا دقائق حتى ازدادت الأمطار الهاطلة تدريجيًا، وامتزج ماء المطر بالتراب الموجود على واجهة المبنى فخلق رائحة غريبة طالما ذكرتني بأيام الصبا.

نظرتُ إليها وهي واقفة تنظر إلى حبات المطر التي تسقط على الدرابزين في شرود. ثم قلت لها وقد تسلل إلى قلبي بعض السرور:

-وكأننا لن نسافر غدًا!

أومأت لي برأسها دون حديث أو تفاعل ينم عن اهتمام منها بما أقول. ولم أكن متأكدًا من السبب وراء هذا السرور، هل هو بسبب

أني أحب هطول الأمطار منذ الصغر، أم أني سعدت لمجرد أن سفري سيتأخر يومين أو ثلاثة.

ظللتُ شاردًا حتى حوَّلت نسمة رقيقة من الهواء البارد بعض رذاذ ماء المطر على وجهي، فتنبهت إلى ذلك وخرجت من شرودي ناظرًا إلى السماء الملبدة بالغيوم. ووجدت نفسي أقول لها:

-سأفتقد الحديث معك وقت الإجازة.

ظهر عليها بعض الاضطراب كأنها تشبه باقي الفتيات في مثل عمرها، لكنها سرعان ما وارته حينما اتخذ وجهها مأخذ الجد، وقالت:

-حديثي رغم قلته لم يخرج عن كونه حديثًا عن بعض ما عانيته من أحداث! فكيف تشتاق لحديث مثل هذا؟

-لا أعلم... ربما لأني متعاطف معكِ.

لكم تمنيت أن أقول لها أنه على الرغم من تعاطفي معها فعلًا، إلا أني مع مرور الوقت وجدت أن موعد تواصلي معها أصبح موعدًا محببًا إلى نفسي رغم ما يسببه لي من حزن وألم على ما عاشته وما حدث لها ولأبناء شعبها من آلام وأحزان، فكنت أجد في

أحاديثها القليلة وردودها المقتضبة وقتًا لكي أتأملها فأنظر إلى تصرفاتها وردود فعلها، فعندما تجد مني سؤالًا تتوقع مسبقًا أني سأطرحه عليها ولكنها تتمنى ألا تُجيب عليه، كانت تنظر إلي وتُضيق عينيها البنيتين قليلًا ثم تلتفت عني وتططئ رأسها إلى أسفل ثم تهزها يمنة ويسرة وتتركني ذاهبة إلى غرفتها دون حديث.

ظللنا واقفين في الشرفة بعضًا من الوقت دونما حديث، بينما كنت شاردًا أفكر في قصتها وفي هذه الإجازة التي ستحول بيني وبينها، إلى أن تحول المطر إلى ما يشبه السيول، فقطع عليَّ حديثي إلى نفسي، وطردني إلى الواقع حيث الماء المُسبِل، فانتبهت إلى ذلك والتفت إليها قائلًا:

-ادخلي غرفتك فالطقس يزداد سوءًا.

مكثتْ هناك بعض الوقت كأنها تجاهلت طلبي لها، ثم ذهبتْ إلى غرفتها في صمت. وذهبتُ إلى الفراش مُلقيًا بجسدي عليه مُعاودًا التفكير فيها، لا يستطيع قلبي ولا جوارحي إنكار ميلي إليها أو شغفي بها، الأمور أصبحت أكثر اتضاحًا الآن عندما أيقنتُ أني لا أستطيع تحمل عدم لقائي بها أو عدم حديثي معها خلال تلك الأيام. كان أمرًا غريبًا بالنسبة إلي خاصةً أني كنت لا أزالُ

أفكر في إسراء، تلك الفتاة التي في قريتنا. وبسب تعظيمي للحب وشعوري بأنه شيءٌ يصعُب الوصول إليه، فقد أرجعتُ ميلي للتواصل مع لمى والتحدث إليها إلى التعاطف معها، كما أرجعتُ من قبل حنيني المتفاوت لإسراء إلى التعود علي التواصل معها.

أبو مروان زارنا في ذلك اليوم، سأله والدي:

–ماذا قالت لك ابنتك عن الإلتحاق بالجامعة؟

رد الرجل:

– إنها لا تُحبذ ذلك حاليًا... طلبت مني تأجيل هذا الأمر للعام القادم.

–أخشى أن تضيع الفرصة، كما قلت لك من قبل أن قرار الرئيس بإعطاء حق التعليم والعلاج للسوريين فرصة يجب انتهازها.

–الحقيقة أني لا أريد أن أجبرها على شيء الآن، فإني أشاركها حجم الألم الذي تسبب لها بمقتل والدتها إضافة إلى ما ذاقته من أهوال في سوريا... فقررتُ أن أتركها كما تُريد على الأقل تلك الأيام.

– معك حق... فلننتظر إذًا، وما العام القادم عنا ببعيد.

نظر والدي إلى نشرة الطقس التي كانت تُذاع على التلفاز حينئذٍ وقال لي:

–قد يتأجل السفر قليلًا يا مهاب.

–نعم.. أظن ذلك.

قال أبو مروان:

-نسأل الله أن تتحسن الأوضاع.. إخواننا اللاجئين في الأردن ولبنان يموتون بردًا بسبب هذا الطقس.. كنتُ أرى الأطفال والشيوخ يتجمدون من البرد، ولا يجدون مأوى ولا ملبسًا يلجأون إليه من هذا البرد. إنها تُمطر ثلجًا هناك. والمعونات التي تأتي من دول الجوار قليلة جدًا، ولا تكفي مئات الآلاف هناك. وكل هذا رغم ما يملكه رجال الأعمال العرب من مال طائل!

****

مر شهران دون جديد، والده كان يتباطأ في البحث ظنًا منه أن الأيام ستجعله ينسى فتاته، لكنه لم ينسها، بل ظلت تشاركه أيامه ولياليه، كأنها لم تفارقه، كانت أيامهما تتراءى له كلما اختلى بنفسه، وكان يُسائل نفسه كلما آوى إلى فراشه، في أي مكان ذهبت، وهل هي بخير أم لا.

عندما حصل على إجازته، أخذ يتقصى عنها في السجون والمعتقلات بمساعدة أصدقائه وأصدقاء والده، لكنه لم يجد لها أثرًا، شعر في هذه اللحظة أنها ضاعت إلى الأبد، لكنه رغم ذلك ظل متمسكًا بأمله في إيجادها، كأنه كان يرى أن هذا الأمل هو الذي يجعله متمسكًا بالحياة بدونها، حتى يلتقي بها يومًا ما.

الفصل السادس

كان الجو هادئًا ساكنًا عندما استيقظت، وكان يبدو من هدوئه أن السماء ما عادت تُمطر، وكانت العصافير تزقزق خارجًا كأنها فرحة لانقطاع ماء المطر الذي كان يعني لها الإيذان بالخروج إلى أرض الله من أجل إطعام صغارها ونفسها. ظللتُ أصغي السمع إلى زقزقة العصافير، إلى أن أوشكت الملل من المكوث على الفراش، فنزعت الغطاء ناهضًا من على ذلك الفراش الدافئ، ثم فتحت الشرفة، فرأيتُ الشمس مشرقة والسماء زرقاء صافية لا شية فيها إلا من بعض السحب المتقطعة في الأرجاء، كأنها خير دليل عن بقايا وآثار تلك المعركة التي دارت بين السحب في الليلة الماضية.

كانت الساعة التاسعة وبضع دقائق، لم تكن لمى تطل من شرفتها حتى هذا الوقت، لما تناولتُ طعامي وعدتُ إلى شرفتي وجدتها تقف هناك كعادتها. تبادلنا التحية، وأكملت قصتها.

(٢)

عندما تم قبولي بكلية الآدب والعلوم الإنسانية، كنت في غاية السعادة والفرح؛ لأني حققت حلمي البسيط، وأصبح الطريق مفتوحًا أمامي لتحقيق حلمي الأعظم.

كانت أيام ما بعد القبول مليئة بالأماني والأحلام، وكانت تستحوذ علي فكرة دخول الجامعة، وما في هذه المرحلة من نضج وانفتاح على كل ما يدور في العالم من أحداث. رنا كانت صديقتي منذ أيام الطفولة. كانت تسكن بجورانا منذ أن سكنت العائلة في حي صلاح الدين. حي صلاح الدين هو حي تابع لمحافظة حلب. ورنا على الرغم من أنها لم تكن ترغب في الالتحاق بكلية الآداب إلا أنها التحقت معي بتلك الكلية بعد أن حاولت الإلتحاق بكلية الطب لكنها فشلت في ذلك، وبعدما رأت أن كل الكليات دون كلية الطب سواءًا بالنسبة لها، قررتْ ألا نفترق وأن تدخل الكلية معي، حتى نذاكر معًا مثلما كنا في المرحلة الثانوية والأساسية.

نشأتُ مع رنا نشأة الأختين الصديقتين، لم نكن نفترق عن بعضنا، نأكل معًا وننام معًا، كانت بيوتنا واحدة نمكث في بيتها حينًا ثم في بيتنا حين آخر. كنا نخرج معًا، وكانت كلتا الوالدتين تطمئن على ابنتها إذا علمت أنها خرجت بصحبة الأخرى.

كنت أعيش حياةً سعيدة، وكنت راضية مطمئنة في حياتي لا أسخط منها، ولا أتطلع إلى غيرها، كانت لي بعض الآمال في المستقبل لكن تلك الآمال لم تكن سخطًا على حياتي تلك بل إكمالًا وامتدادًا لها.

والدي كان تاجر أقمشةً، يملك عددًا من المتاجر في سوق حلب القديمة وفي أحياء حلب الأخرى. وكانت أرباح تلك المتاجر تكفي لتغطية نفقة أقواتنا وتعليمي، فكنا لا نرغب في شيء غير ذلك، بل كنا نحمد الله على ذلك ونسأله أن يُديم علينا نعمه وأفضاله.

ومرت الأيام نحزن فيها حينا ونسعد بها أحيانًا إلى أن أتى العام الدراسي ودخلنا الجامعة، كنا في أول الأمر نرهبها لكننا مع الوقت تعودناها. ومع مرور الزمن أحسست ولمجرد دخول الجامعة أني فتاة ناجحة تسعى إلى تحقيق هدفها، وكنت على يقين تام بأني سأحقق هدفي ذلك.

وفي الفصل الدراسي الثاني، ترددت على مسامعي كلمة تونس أكثر من مرة من والدي وأصدقائه، وكذلك من زملاء الدراسة وذات يوم كان والدي يجلس مع صديقٍ له كان يُدعى أبو عمار، يشاهدون نشرات الأخبار التي طالما كانت تردد اسم تونس، قال والدي وكان باديًا علي مُحياه علامات الابتهاج آنذاك:

-والله شباب تونس رجال.

قال أبو عمار:

-أي والله... لولا صمودهم ما هرب الرئيس.

-انظر إلى الأيام يا أخي لم ترغب أي دولة في استضافته، ولولا السعودية لظل عالقًا في الجو وما وجد أرضًا يلجأ إليها.

كان من الطبيعي أن تكون كلمة هروب الرئيس من تلك الكلمات التي تُمنح الاهتمام، وتجذب الانتباه، فلم أسمع قط عن هروب رئيس في بلادنا تلك. إلا أنني لم أفكر في الأمر كثيرًا، فكل ما علمته أن رئيس تونس ترك البلاد، بعد أن ثار عليه الشعب. كنت متحمسة لسماع ذلك، لكني لم أهتم بالأمر كثيرًا.

ومع مرور بضعة أيام سمعنا عن بعض الأحداث التي جرت هنا في مصر، وعن الشباب الذي تحدى النظام وجهر علنًا برفض بقائه بل طالب بسقوطه، وكأن هؤلاء الشباب قد أيقظوا رغبة الشعب الكامنة فوجدنا الشعب كله يطالب بإسقاط النظام.

ظل والدي يتابع ما يجري في مصر على المحطات الفضائية، إلى أن تنحى الرجل. كان حينئذ في غاية الفرح، كان يقول إذا نجحت الثورة في مصر فإنها غير مُستبعدة في سوريا.

وفي الكلية كان بعض الزملاء يتحدثون هامسين عما حدث هنا في مصر، لكنهم كانوا يستبعدون حدوث ثورة في سوريا قائلين بأن مصر ليست كسوريا، بعضهم كان يقول أن الطائفة الحاكمة في سوريا لن تقبل بهذا، كما كانوا يقولون أن هناك أرضًا محتلة في سوريا ويجب أن نستعد ونتكاتف لرد هذه الأرض الغالية، وليس هذا بالوقت المناسب للثورة أو التصحيح.

لم يكن هذا الكلام أيضًا يهمني كثيرًا، كان يمر على مسامعي دونما تفكير، كانت مشاغلي أبعد ما يكون عن ذلك خاصة مشاغل فتاة مراهقة في أوج شبابها.

لكن عدم إهتمامي هذا لم يدم كثيرًا فسرعان ما جرت الأحداث على حين غفلة، وتابعنا الاعتقالات التي جرت في درعا للأطفال الذين كتبوا عبارات تطالب بإسقاط النظام، وهكذا بدأت المأساة وبدأ نظام بشار في قمع ومعاقبة كل من يخرج ضده.

كانت الناس تردد هتافات مثل (الكرامة ما بتنداس)... (يللي بيقتل شعبه خاين). وكانت تلك الهتافات تؤثر فيَّ كثيرًا، شعرت حينها أن الشعب السوري قد أهين بعد ما حدث في درعا، لكنه رفض تلك الإهانة، فحطم حاجز الخوف، وخرج ليعلن رفض إهانته أمام النظام.

كنا نتابع التطورات والأحداث من خلال التلفاز، وكانت هناك بعض الفاعليات والمظاهرات التي كانت تخرج معلنة رفضها لنظام بشار في مناطق متفرقة في سوريا، ثم سرعان ما امتدت إلى حلب التي لم تكن قد ثارت بعد على نظام بشار، إلا أنها انضمت إلى الثورة بعد أن طالبوها ثوار درعا بذلك حين رددوا هتاف (وينك يا حلب) فثارت المدينة ضد نظام بشار كأنها كانت تنتظر تلك الدعوة. ومن هنا بدأ التضييق الأمني، وامتلأت الشوارع بالعربات والمجنزرات والقوات المسلحة.

وعندما بدأت بعض الجماعات تشتبك مع الجنود، أصبحنا نفقد الأمان تدريجيًا. كنا نسمع طلقات الرصاص طوال الليل، ونسمع أصوات القذائف والصواريخ كأنها ستسقط فوق رؤسنا على الرغم من بعدها عنا.

مناطق الاشتباكات كانت محدودة ومتفرقة؛ لذلك كنا نقوم ببعض الممارسات اليومية، فكنا نذهب إلى الكلية وإلى المدرسة. وإلى العمل كان يذهب الناس أيضًا.

وذات يوم وبينما كنت عائدة من الكلية بصحبة صديقتي رنا، وجدت جارتنا، تلك الطفلة الصغيرة التي كانت تُدعى مرام، مقبلة نحوي وهي في غاية السعادة والحبور، كنت قد تعودت أن أشرح لها دروس اللغة العربية وأقوم بتصحيح وتقويم نطقها وكتابتها للكلمات التي في كتابها المدرسي.

في ذلك اليوم كانت مرام مبتهجة وسعيدة، تعلقت بفستاني، وأخبرتني أنها حصلت على علامة كاملة في امتحان اللغة العربية. ابتسمتُ لها عندما قالت ذلك، وكدت أربت على رأسها، لكنها اتجهت مسرعة نحو منزلها وهي تقول:

-انتظري.. سأريك الكراسة.

أخبرتها أني سأنتظرها في المنزل، ولم أعلم حينئذ أسمعتني أم لا، لكني عدت إلى منزلي. وبعد أن قمت بخلع ملابسي، جلست منتظرة مجيئها، وبينما كنت كذلك إذا بصوت ضخم يهز أركان المكان. فوقعت على الأرض من شدة الصوت، وظللت لدقائق واقعة على الأرض ذاهلة لا أعلم ماذا حدث، كما أنني ظللت لا أسمع لبعض ثوان. أبي كان نائمًا في غرفته، عندما سمع الصوت هرع من غرفته متجهًا إلى باب الشقة ليرى ما حدث.

كان إنفجارًا في مبنى يبعد قليلًا عن منزلنا، كنت في غاية الخوف والرهبة، وكنت أظن أن الموت أهون من كل ذلك. فالحياة لا تستحق أي شيء من هذا، لذلك كنا نرغب ونتمنى التخلي عن هذه الحياة المُذِلة، ولكننا في لحظة واحدة كنا نتوهم أن القادم قد يكون أفضل من هذا الذي كنا فيه، فنرجع عن رغبتنا ونعود فنتمسك بالحياة أكثر، لكن القادم يكون أسوأ وأسوأ.

كنا نشبه حينها ذلك الشخص الذي يُوجه إليه مسدسًا، لكن الرجل الذي في يده ذلك المسدس يتلكأ في إطلاق النيران، فيشعر الشخص الآخر بخوف هو أشد وأهول من الموت نفسه. كنت أتمنى أن أطلق النيران على نفسي أفضل من الخوف وانتظار أن يطلقها أحد عليَّ.

عندما خرجت بعد دقائق من الإنفجار وجدت آثاره قريبة مني، فكان هناك بعض الركام الممتد أمام منزلي، لكني صدمت عندما رأيت المنزل الذي حدث فيه الإنفجار قريبًا جدًا لهذه الدرجة، عندما

رأيت ذلك. علمت أنه بيت الطفلة مرام، ذهبت مسرعة إلى هناك لأبحث عنها، فوجدت جمعًا من الناس، دخلت بينهم دون مبالاة، وياليتني لم أدخل.

كانت الطفلة يحملها أحد الرجال، وكانت مضرجة في الدماء وملطخة ببعض الرماد على وجهها وجسدها وفاقدة للوعي تنظر إلى اللاشيء، عندما رأيتها كذلك شعرت أن دمي كالماء يغلي ويمور، كأنه سيمزق عروقي، بكيت بكاءًا شديدًا على تلك الطفلة التي ماتت، ولا تعلم السبب الذي جعلها تفقد حياتها. لا تعلم لماذا قتلت ولا من قتلها، ولا تعلم لماذا لن تعيش باقي حياتها مثل بقية أطفال العالم.

ظللت أبكي بين الركام، وأتذكر ابتسامتها فأزداد نحيبًا وصراخًا، الناس لم يهتموا أو يلتفتوا إلي، كانوا مشغولين بإسعاف باقي العائلة. كان شيئًا في غاية القسوة عندما ينجوا كل أفراد العائلة إلا تلك الطفلة البريئة.

الدخان كان يملأ المكان، ومن شدة بكائي وكثافة الدخان رحت أسعل، فاتجهت خارجة من باب المنزل المهدوم، وجلست بالقرب منه. حينها وجدت كراسة محترقة ملطخة بالدماء ملقاة على الأرض، فتخيلت أن مرام كانت تحمل كراستها فسقطت عليها القذيفة وهي عند الباب.

ظللت جالسة عند الباب المهدم في حالة كانت أقرب إلى الشرود والخمول، ظللت هكذا إلى أن فرغ الناس من نقل المصابين، وعندما لاحظ أبي وجودي، اقترب مني وربت على كتفي ثم جلس بجواري، وضمني إلى صدره، وكان يتمتم قائلًا:

(*الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون*).

كأني أسمع هذه الآية لأول مرة في حياتي، رغم سماعي لها دائمًا، إلا أنها كانت ذات وقع غريب على أذني: (إنا لله وإنا إليه راجعون)، لأول مرة تذوقت وفهمت معنى هذه الجملة. نحن ملك لله، يفعل ما يشاء بنا، ثم إننا سنرجع إليه سواء اليوم أو غدًا. لذلك يجب ألا نعترض إذا توفى الله أحدًا اليوم فكلنا ملك له وكلنا له راجعون.

على الرغم من شدة وهول ما مر بي في هذا اليوم إلا أني شعرت ببعض الأمان بمجرد أن ضمني أبي إلى صدره. أبي رجل مؤمن كان يقول لي دائمًا (اعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن ما أصابك لم يكن ليخطؤك). كانت هذه الكلمات تهبط كالماء البارد على قلبي الذي كاد يتشقق عطشًا وجفافًا، فكانت تجعلني أكثر إحتمالًا وصبرًا.

في حضن والدي ظللت هكذا بضع دقائق إلى أن إصطحبني إلى المنزل، وما هي إلا أيام حتى أخبرني أننا سنخرج من سوريا.

كانت تتحدث بصعوبة، وكان كلامها مؤلمًا، كأنها كانت في حديثها تنشر الحزن والألم في قلوب ونفوس من يستمعون إليها، كنت أشعر أنها تتألم كثيرًا كلما تحدثت، كأن الذكريات تتكالب عليها وتهشم أضلاعها؛ لذلك انتهزت صمتها بين ثنايا حديثها قائلًا لها:

-كفاك هذا اليوم... أراكِ متعبة.

الفصل السابع

مر يوم واحد بعد ذلك، ثم بدأنا في حزم أمتعتنا ذاهبين إلى أسيوط، لتمضية إجازة نصف العام هناك. عندما كنت أهمُ مع الأسرة بالخروج من المنزل، تذكرتُها بأحزانها ومصائبها، وجدت أني سأفتقدها في تلك الأيام. سأفتقدك يا لمى، سأفتقد رؤية وجهك الوضاء الذي اعتدت أن أراه كل صباح كما نعتاد رؤية الشمس إذا ظهرت غير مرة في أيام الشتاء. سأفتقد حركاتك التي تخرج منك لا إراديًا عندما يتعارض كلامي مع ما راسخ في وجدانك من مبادئ ومعتقدات، سأفتقد عبوسك وكرهك للحياة. أتعلمين يا لمى؟ لقد أوشكتُ أبغض الحياة لمجرد أنك تبغضينها.

يا مُهاب.. هل اتهام طارق لي هو اتهام ظالم أم أن هذا الصديق لا يُريني إلا ما يرى من حقيقة ظهرت علاماتها في تعاملي وحديثي عنها؟ كيف يختزل الناس الحب في معنى التعود والألفة؟ فأي حب هذا الذي يبزغ في شهور قليلة... لا يوجد حب حقيقي يظهر هكذا. إني فقط متعاطف معها. مجرد تعاطف، هناك بعض الشفقة فقط على تلك الفتاة المسكنية. نعم، وهذا أمر طبيعي قد يخرج من أي شخص إذا مر بمثل تلك الظروف، ولكن ما علاقة التعاطف بالتعلق؟! لا توجد علاقة، فأنا أشتاق إلى صديقاي طارق وعمر عندما يُسافران

إلى بلادهم، وكذلك أشتاق إلى شروق عندما تغيب أيضًا، ليس معنى ذلك أنني أهيم بشروق عشقًا! مجرد التعود والألفة بين أي شخصين قد يولدان الاشتياق عندما يبتعدان على غير ما تعودا عليه.

وشعرتُ أني سأفتقدها هناك، لكني بمجرد أن استقليتُ القطار، وجدتُ في قلبي بعض المسرة والابتهاج، فلقلبي أن ينسى كل شيء، إلا هذا الشعور السخي بالسعادة، الذي طالما غمرني كلما عدتُ إلى أصلي ومنبعي، وكلما تذكرتُ أني جزء ذاهب إلى كله، كنبتة اقتلعت من تربتها وما تلبث أن تتمنى أن تُغرس فيها مرة أخرى، لتعود إلى الحياة والنمو من الجديد.

كانت قريتنا من تلك القرى التي تطل على مسلك القطار المتجه من القاهرة إلى صعيد مصر. عندما كان القطار يتوقف في المحطة، رُحت أرفع حقائبي من على الأرضية، وكانت عيناي معلقتان في نافذته لعلي أجد صدفة أحد أصدقائي موجودًا بالمحطة.

ولم أجد أحدًا سوى بعض الناس الذين أعرفهم بعض الشيء، لكن والدي يعرفهم جيدًا، فاستقبل هؤلاء الناس والدي بحفاوة، وكذلك استقبلوني، وحدث ذلك أكثر من مرة حتى استقلينا سيارة أجرة إلى منزلنا.

رائحة الطين والزروع كانت تذكرني بذكريات جميلة في قريتي، ذكريات طالما أشتاق إليها وأتمنى أن أعودها، وتراءت لي تلك الذكريات عندما كنت في سيارة الأجرة المتجهة إلى منزلنا، فكنت أمرُ على أماكن كان لي فيها بعض الأحداث المثيرة، هنا وقعت في الترعة عندما كنت أصطاد السمك مع صديقي عامر، كان يومًا أسودًا حينئذٍ، فكنت أخاف من صنيع والدتي عندما ترى مظهري وملابسي المتسخة. وهنا خلف هذه الشجرة إختبأت من العم شلبي حتى لا يرانا ويعلم أننا كنا نسرق أكواز الذرة من مزروعه، طفولتنا كانت جريئة نلعب فيها حتى تنقطع أنفاسنا، ثم نعود إلى المنزل، نختبئ تحت الفراش دون أن يشغل بالنا هم من هموم الحياة التي تتثاقل علينا كلما كبرنا.

أحلامنا كانت بسيطة أو كما تشأ قل تافهة، كانت أبسط الأشياء تسعدنا، مجرد لعبة صغيرة أو رحلة كانت كفيلة بأن تجعلنا ساهرين حتى مطلع الشمس من فرط الفرح والسعادة. تُرى يا مهاب ما هو الشيء الذي يجعلك سعيدًا حتى تظل ساهرًا حتى الصباح من فرط النشوة والسعادة؟! لا شيء؟

تهادت السيارة حتى وقفتْ أمام منزلنا. جدي وأعمامي كانوا يجلسون في ردهة المنزل، تعانقت مع أعمامي، وعانقتُ جدي عناقًا شديدًا، وشعرتُ بمعانقته أني ألقي بنفسي بين أحضان الماضي، هنا يا سادة عاد الجزء إلى الكل، واكتملت روحي بين أحضان هذا الطيب العجوز، وإزدت جمالًا، وشعرت بصفاء في الروح لا يصل إليه إلا صاحب قلب شغوف بذكريات الماضي

طيبة الأثر. وإزدتُ صفاءًا عندما تراءت لي نفسي وإسراء وعامر نلعبُ معًا على الأريكة الموجودة في ردهة المنزل.

في تلك الليلة، جلستُ مع جدي، تحدثُت معه كثيرًا، وقابلت صديقي عامر، جلسنا كما اعتدنا منذ الصغر على الترعة تحت النخيل، عامر كان صديقي منذ الطفولة، لا أذكر متى تصادقنا، فذكرياتي كلها كان يتشاركها معي، فلا تكتمل ذكرى أو موقف قديم إلا به . كان فارع الطول، أسمر اللون، طيب القلب، لا يُخفي لسانه ما يدور في قلبه من كره أو حب.

في ذلك اليوم، فاجئني قائلًا:

-إسراء سألت عنك.

-ماذا؟

-أنسيت إسراء؟!

-وكيف أنساها؟! متى سألت عليَّ؟

-قابلتني في الكلية ذات يوم.

-غريبة! لماذا لم تبلغني ذلك بالهاتف؟

-كانت تلك المقابلة قبل الامتحانات مباشرة، فرأيتُ ألا أزعجك.

ساد صمتُ غير كامل بيننا، كان يقطعه نقيق الضفادع من وقت لآخر. حتى قلت له:

-تُرى ما الذي جعلها تسأل عني؟

-لا أعلم! لو لم نكن في إجازة لذهبت معك إلى الكلية حتى تقابلها...

ربما لم تتحمل سكوتك، فقررت أن تأخذ الخطوة الأولى.

-لست متأكدًا من مشاعري!

-ماذا تقصد؟

-أعتقد أن الحب شيء لم يصل إليه أحد، أو قليلون هم من وصلوا إليه، إن منتهى الحب كمنتهى الحكمة، الكل يسعى إلى الحكمة لكننا لا نصل إلا إلى قشور وأشباه الحكمة، كذلك الحب فنحن نصل إلى أشباهه.

-ما هو الحب إذًا يا مهاب؟

-الحب ليس له معنى يا عامر!

اكتمل الاجتماع بباقي أصدقاء الطفولة، فطاب الحديث بيننا، وصرنا نتسامر متجولين بين أنحاء القرية، في حقولها ومزارعها إلى أن تفرقنا عندما اقتربت عقارب الساعة من الواحدة صباحًا. وذهبتُ إلى المنزل ووجدت اختي دينا تجلس على مكتبها وتنظر في شرود وحزن إلى بعض الأوراق التي كانت بين يديها، وسألتها عن ذلك. فقالت:

-أبو مروان اتصل بوالدك، وأخبره أن لمى في المستشفى.

الفصل الثامن

تلقيتُ هذا الخبر دون أي تفاعل معه، فتلك الكلمات كانت كفيلة بأن تجعل جهازي العصبي يتوقف عن التفاعل مع أي مؤثرات خارجية. وعلى الرغم من ذلك شعرت أن الدماء تكاد تنفجر من قمة رأسي. هل انتحرتِ يا لمى؟ أتلك هي نهاية قصتك؟ هل اتخذت من سفرنا فرصة لتنفذي خطتك الآثمة وتتحرري من حياتك البائسة؟

العديد من الأسئلة تواردت على ذهني، ولم يقطع علي تواتر تلك الأسئلة إلا نداء أختي عليَّ:

-مهاب! إنها بخير.. اتصلتُ بوالدي قبل مجيئك وأكد لي ذلك.

لم أسمع تلك الكلمات بتلك الدقة، لكني كنت متأكدًا أن دينا قالت لي أنها بخير. نعم.. أعتقد أنها قالت ذلك؛ جمَّعت بعض الحروف بين شفتاي، وقلت لها في صوت هامس ضعيف:

-هل علمتِ اسم المستشفى التي فيها؟

-نعم.. هل ستذهب إلى هناك؟

حالتي السيئة لم تسمح لي بالرد على سؤالها، بالكاد طلبتُ منها عنوان المشفى الذي تُعالج فيه لمى، واتجهتُ إلى غرفتي جامعًا بعض الأغراض في حقيبة صغيرة وهممتُ بالسفر.

والدتي دخلت علي أثناء ذلك كأنها كانت تتيقن مما جاءت به دينا من خبر، سألت:

-أين تذهب؟

-إلى القاهرة.

-الأمور بخير هناك، ويكفي أن تتصل بهم فقط.. لا يجب عليك أن تسافر في هذا الوقت المتأخر.

قلت لها:

-يا أمي لا أعلم ما هو الواجب وغير الواجب الآن.. كل ما أعلمه أني سأكون بخير هناك.

هذه الكلمات كانت ثقيلة عليَّ عندما قلتها. لو أني حاولت قولها ثانية، ما استطعت. كنت أميل إلى إحاطة مشاعري بأسوار من السرية وعدم الوضوح، لكن شدة هذا الموقف جعلت مشاعري تخرج من عقالها، فوجدت نفسي أبوح بكل ما في وجداني من طموح ورغبات، ولعل والدتي علمت ذلك فتركت لي حرية السفر. وما هي إلا دقائق حتى كنت مستقلًا قطار القاهرة.

أستفارقيني يا لمى دون معرفة قصتك، ألم تجدي أي شيء يشجعك على الحياة في تلك الدنيا بكل ما فيها من محاسن. هل هذه الحياة يا لمى لا تستحق المعاناة فعلًا أم أنكِ فتاة فقدت رشدها بسبب هذه الأحداث التي تجري في بلدك.

جلستُ في القطار وبدأت أستجمع شتات أفكاري، تذكرت عندما سألتني هل من الممكن ألا نسافر إلى أسيوط أم أن السفر أمر لا بد منه. لم أكن أعلم ما الدافع الذي جعلها تسأل هذا السؤال، قد تكون انتهزت فرصة ذهابنا إلى القرية، واتخذت من ذلك خير وقت لتضع نهاية لحياتها البائسة، لكن هل كان وجودي يمنعها من الانتحار، ألم تؤكد لي أني لن أستطيع منعها، ألم تقل ذلك في آخر حديث دار بيننا.

إذا كانت فكرة الانتحار ماثلة أمام عينيها دائمًا، لماذا لم تنتحر عندما غفوتُ في الشرفة، ولماذا لم تنتحر عندما كنت أذهب إلى الكلية كل يوم، لماذا انتظرت كل هذا؟؟

انتزعتني نسمة هواء باردة من شرودي، فعادت بي إلى القطار الذي كنت جالسًا بين أحشائه ويخيم عليه الصمت بعد أن هدأ ما فيه من ركاب، فمنهم نائم، ومنهم ساهم مثلي ينظر في شرود إلى النافذة التي كانت تتشح بسواد الليل الدامس.

ظللت هكذا أفكر في أمرها حينًا من الوقت فأغيب عن هذا العالم لدقائق، ثم أعود مرة أخرى عندما يحدث صوت غير مألوف في القطار.

استقرت السيارة أمام المشفى، وكان ضوء الشمس يعم المكان.

واتجهت إلى الغرفة بعد عدة إرشادات من الأطباء، فوجدت أسرة أبي مروان جميعها هناك، ووالدي وبعض الأشخاص،

وعلمت بعد ذلك أنهم سوريون تعرف عليهم أبو مروان بعدما استقرت له الأمور في المدينة، خاصة بعد افتتاح مطعم المأكولات.

هؤلاء الأفراد كانوا يتحلقون حول السرير الذي تستلقي عليه لمى، ينظرون إليها في صمت كأنما هم في جنازة ينتظرون تشييعها. نظرتُ إليها، فوجدتها فاقدة للوعي، وحولها عددًا من الأجهزة تتنهي أسلاكها إلى جسدها. وشعرتُ بالطمأنينة، لما رأيتُ صدرها يعلو ويهبط هادئًا. فظللتُ بضع دقائق، وخرجتُ بعدما صافحت الجميع وواسيت والدها الذي كان في شدة من الحزن والهم لكأنما كان يصبر على كل شيء إلا أن تصاب ابنته بمكروه.

ذهبتُ إلى شقتي ظهر ذلك اليوم لاستريح من عناء السفر وإجهاده عاقدًا العزم على عيادتها مرة أخرى في المساء، ولما ذهبتُ لزيارتها في المساء، وجدتُ غرفتها خالية من والدها وأم مروان ولا أحد يجلس بجوارها، فشعرتُ بسلام داخلي يكتنفني بمجرد جلوسي على كرسي جعلني على مقربة من وجهها الشاحب، ومكنني من سماع أنفاسها المترددة في صدرها، فتملكني إحساس غريب، وشعرتُ في ذلك الوقت أن هذا المكان هو أحب الأماكن إلى قلبي.

كنتُ أشعر بمزيد من الراحة والطمأنينة كلما رأيتها تأخذ شهيقًا أو تخرج زفيرًا فكان هذا خير دليل لي على أنها لا زالت على قيد الحياة. جلست هكذا بعض الوقت، إلى أن انتبهت إلى همهماتها التي كانت تدل على أن هذيان المخدر مازال باديًا على تصرفها، كانت تتحدث بكلام غير مفهوم من وقت لآخر، وتقول كلامًا متداخلًا لم أفهم منه سوى الاسم الذي نطقت به. (يحيى). كانت تلفظ هذا الاسم في غير تداخل أو تشويه، وكانت تذكر أمها ثم تقول بضع كلمات تتداخل مع بعضها فلا يستطيع أحد التمييز بين أول حروف تلك الكلمة وآخرها.

ها أنتِ يا لمى تبوحين ببعض أسرارك رغمًا عنك، فلو أنكِ ظللتِ تحكين لي عن حياتك ألف مرة ما كنتِ تحدثت عن حياتك العاطفية تلك.

أخبريني يا لمى من هو ذلك الفتى الذي تناديه بيحيى، ولو أنه موجود الآن بجوارك، هل له أن يبعث فيك بصيص الأمل وروح الحياة... أم أن بذرة الحياة التي تنبت في كل حي، ماتت في وطنك، وما أنتِ إلا جسد بلا روح.

سألتُ والدي عما حدث في ذلك اليوم، أخبرني أنها بينما كانت تقف في الشرفة فقدت الوعي فسقطت منها.

-هل هذا كل شيء؟

-نعم!

أجاب والدي. تمنيتُ أن أخبره أنها ما سقطت سهوًا، فتعمدت ذلك السقوط خلاصًا لحياتها. لكن شيء ما منعني من قول الحقيقة. لماذا لم تخبر والدها يا مهاب، ربما يكون ذلك الرجل قادرًا على أن يأخذ بيد ابنته بعيدًا عن الآلام والأحزان، قد يعرف أسباب تعاستها ويخلصها منها فتعود إلى الحياة مرة أخرى. ثم إنك لم تفعل أي شيء لتمنعها من ذلك. ولو أنها ماتت في ذلك اليوم لأصبح موتها خطيئة في رقبتك إلى يوم الدين.

لكن هل ذهابك لأبيها سيكون حلًا؟ ربما يكون هذا بلا فائدة أيضًا. لو أغلق الرجل الشرفة ستربط عُنقها بأي حبل أو تقتل نفسها بأي أداة حادة. هذا صحيح.. فبكل الطرق ستسعى إلى الانتحار، ستنتهز كل الفرص، سترى كل الأدوات الحادة سكينًا ملائمًا لإنهاء حياتها، ستجد أدق الخيوط أداة مناسبة لشنق نفسها، سترى أن أي مسافة ترتفع بها عن الأرض ما هي إلا مسافة مناسبة لإنهاء حياتها.

مرت عدة أيام كنت أتردد فيها مع والدي على زيارتها، أتردد عليها، وأتردد في ذلك الشيء الذي يجب علي أن أفعله تجاهها. حالتها كانت تتحسن تدريجيًا كلما كررنا الزيارة. وكنت أنتهز خلو غرفتها لأي سبب من الأسباب فأذهب وأجلس بجوارها دونما حديث، وكنت عند جلوسي أكسو وجهي بمظهر من الجد، فتتجنب النظر إليَّ، لتتجنب لومي لها بشأن ما فعلت.

حتى جاء اليوم الذي تصادف فيه خلو الغرفة وتحسن حالتها بشكل كبير، فاستطاعت النهوض من على فراشها، والتنقل بين أنحاء الغرفة من وقت لآخر.

لا أعلم ما السبب الذي كان يجعلني أجلس بجوارها في صمت تام، ربما كانت شدة الغضب التي تتملكني حينئذ. وربما يكون ذبولها ومرضها وجهها الشاحب قد زادوني صمتًا إلى صمت.

لكني لم أتحمل ذلك كثيرًا. فبعد أن تحسنت حالتها بشكل كبير واستطاعت النهوض من على فراشها والتحرك في أنحاء الغرفة من وقت لآخر. قررتُ أن أتحدث معها.

في ذلك اليوم ذهبتُ إلى المشفى مبكرًا ، فوجدت زوجة الرجل السوري تخرج من الغرفة، انتهزت ذلك وذهبت إلى هناك. اتجهتُ دون حديث إلى النافذة بجوار فراشها، وذلك بعدما نقرت على الباب المفتوح عدة نقرات. عندما وقفتُ أمام النافذة رُحت أتأمل الطريق المطل على المشفى.

-كيف حالك الآن؟

-الحمد لله.

نظرتُ إليها، سألتها:

-أتحمدين الله حقًا لأنكِ بخير؟!

-لماذا تقول ذلك؟

-أقصد أنكِ كنتِ تتمنين الموت من قبل، فلماذا تدَّعين الحمد الآن؟

-الله يُحمد في السّراء والضّراء!

-أنتِ تحتاجي هذا الإيمان لما تفكري في الانتحار المرة القادمة!

-لا توجد مرات قادمة... قلت لك كانت مرحلة فقدت فيها رشدي وانتهت.

سكتُ حتى هدأ ضجيج بعض السيارات التي كانت تسلك الطريق. وسألتها:

-ولماذا حاولتِ الانتحار مجددًا إذا كنتِ تقولين أنها كانت مرحلة طائشة؟

-ومن قال لك أني حاولت الانتحار ثانية؟

-هل هذا يحتاج إلى قول أحد.. أنتِ من أول ما جئتي إلى مصر وأنت لا تفكرين إلا في الانتحار.

-لا.. هي مرة وحيدة.. وبعدها عدت إلى رشدي.

-ماذا حدث هذه المرة؟

-فقدت توازني عندما كنت أنظف سقف الشرفة.

- قلتي لوالدك ذلك؟! لكني غير مقتنع.

طأطأت رأسها، وقالت:

-هذا ما حدث!

لم أصدق ما قالته، كنت أعلم أنها كاذبة، لكني وجدت أنه لا فائدة من الجدال في هذا؛ لذلك تركتها عائدًا إلى شقتي.

الفصل التاسع

هاتفتني شروق صباح اليوم التالي، كانت على علم بمحاولة الانتحار الأخيرة، فسألتني عن لمى وحالتها، وأخبرتني بعد ذلك أن أهل العريس عادوا ليعرفوا رأيها في زواجها من ابنهم. سألتني عن السبب وراء تأجيل موافقتها، فصمتُ، وفكرتُ في عُمر، الذي لم يتقدم خطوة واحدة خلال فترة الامتحانات.

رأيتُ أن أعرض الأمر عليها، عسى أن يكون هناك شيء ما في قلبها تجاه عُمر، يدفعه إلى الفصح عن حبه دون خوف أو تحرج. كانت تعلم أني في المدينة، فطلبتُ منها أن تُقابلني في اليوم التالي.

تقابلنا في نفس المقهى الذي نجلس فيه دائمًا، سألتني عن لمى، تذكرتُ ما حدث كأني نسيته، أخبرتها أنها بخير، وصمتُ.

قلتُ لها:

-أريد أن أخبرك بشيء عن عمر... أعلم أنه ربما يغضب مني إذا أخبرتك... لكني رأيتُ أنه من الأفضل إخبارك.

تبدى الاهتمام في عينيها الزرقاوتين، وسألت:

-ماذا؟

-إنه... يحبك.

تجلت الدهشة في عينيها وامتزجت بالسرور الذي سرعان ما وارته، وقالت:

-يحبني؟!

-نعم.

امتقع وجهها الأبيض، نظرت إلى الهاتف في اضطراب، ثم رشفت رشفة من المشروب الذي وضع أمامها، وحدقت فيَّ دون حديث. سألتها:

-ما رأيك؟

قالت:

-لا أعرف... لكن.. أتعلم... عُمر هو الوحيد الذي يسألني دائمًا عن رأيي في الكتب التي أقرأها... في كل مرة يرى في يدي كتابًا كان يسألني بعدها عن رأيي فيه... حتى أبطال الروايات التي كنت آخذها منه لأقرأها، كان دائمًا يسألني عن رأيي فيهم، وأيهم أميل إليه، وأيهم استنفر منه... كان يستمعُ إلى رأيي دون جدال وفي شغف... وكنت مدهوشة من إصغائه التام لي، فكنتُ أظن

أنه يفعل ذلك مع أي أحد، لذلك لم أتوقع أنه يحبني، لأنه أيضًا لم يقم بأي شيء يدل على ذلك.

دُهشتُ مما قالته، وندتْ عن فمي ابتسامة تنم عن الطمأنينة، فقلت لها:

-لذلك أيضًا لم يخبرك بحبه، قال أنه لا دليل على حبك له، وأنه يخشى خسارة الصداقة التي بينك وبينه، إذا أخبرك بذلك.

في ذلك اليوم، خبرتني شروق أنها لا تستطيع أن تفعل شيء حيال تردد عُمر في الفصح عن حقيقة مشاعره، يجب عليه أن يخطو خطوة واحدة إن كان يريدني حقًا. قالت ذلك، وكانت مدهوشة من تباطؤه، وسألتني في استنكار:

-ماذا لو قبلت العريس قبولًا نهائيًا؟!

كان من اليسير إلى عُمر أن يفصح عن حبه، بعد ما وجد من قبول لدى شروق. في ذلك اليوم تتميتُ الذهاب إلى المنصورة حتى أرى فرحه وبهجته، لكني استصعبتُ الأمر، لما أخبرته بما حدث، دُهش من موقف شروق، وسمعتُ في صوته علامات الرضا والسعادة.

بعد انقضاء الإجازة، ذهبتُ إلى الكلية، واتجهتُ فور وصولي -كما عودتنا الأيام- إلى المكان الذي كنا نجتمع به قبل كل

محاضرة. لما جلستُ بينهم، راحوا يتبادلون الحديث عني وعن لمى وما حدث لها. كان حديثهم مألوفًا، حتي سمعتُ طارق يسألني:

– لماذا تشغل نفسك وتجهدها كل هذا الجهد؟! من يريد الانتحار فهو حر، لن تكون أكثر رحمة على تلك الفتاة من نفسها.

دهشني سؤاله الذي لم يتوراد على ذهن أحد منا من قبل، وامتعض عُمر منه، وقال له لا أحد يفكر بمثل هذه الطريقة، وظللنا نجادله دون جدوى، كان شيئًا فطريًا في داخلي يحملني على مساعدتها، قلت له:

–أحيانًا لا نجد مبررات كافية لأفعالنا.

لكني قلتُ له في نهاية الحديث:

–ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جمعيًا.

هي شغلت تفكيري خاصة في تلك الأيام، بعد أن مر وقت كثير على آخر مرة التقيت بها، لم أرها منذ أن تحدثنا معًا في المشفى. كان هناك شعور يمنعني من مقابلتها مرة أخرى، شعور باليأس كان يتملكني؛ لأنها حاولت الانتحار مجددًا، لو أن فكرة الانتحار ماثلة هكذا في ذهنها فلمَ أجهد نفسي مع فتاة هي أُقرب إلى الموت منه إلى الحياة، ولمَ أعلق قلبي بأمل هو بعيد كل البعد عن الحقيقة. لماذا أضع أملي في يدِ فتاة، كل أملها في الحياة الموت.

كنت أتمنى أن أنتشلها من الأفكار السوداء والذكريات المريرة التي كانت تتربص بها وتعتمل في عقلها فتؤدي بها إلى احتقار الحياة والإستهانة بالموت. لكني أدركت بعد محاولتها الثانية أنها لن تفكر إلا في الانتحار ما دامت على قيد الحياة.

في تلك الليلة، هاتفني صديقي عامر، أخبرني أنه رأى إسراء في كليته مجددًا، لكنها هذه المرة لم تأتِ إليه لتحدثه. كنتُ أنوي مقابلتها من قبل، لولا ذهاب لمى إلى المشفى، فنسيتُ كل شيء دون ذلك.

لذلك قررتُ تحين الفرص للذهاب إلى أسيوط، لأني ظننتُ أن شيئًا من المودة، ظل عالقًا في قلبي تجاهها. كنتُ أعود إلى الماضي، وإلى اجتماعي بها فأرى أنها فتاة مميزة؛ لأن فؤادي تعلق بها ذات يوم.

لكنَّ أيامًا قليلة فقط كانت جديرة بأن تنسني هذا القرار؛ كان ذهني منشغلًا بلمى وهذا الشيء الذي تفكر فيه. كما أن ذكرها لم يتوقف في المنزل، فمع مرور الأيام كان الجميع يتحدث عن نزعها لجبائر الجبس، وعن تماثل حالتها للشفاء، وكلما يعودونها كانوا يتحدثون عنها وعن حالتها المتقدمة.

تعاظمت الأفكار في رأسي، وتكاثرت الأسئلة في ذهني، فبعد أن كان سؤالًا واحدًا وهو لماذا تحاول تلك الفتاة الانتحار.

أصبح هذا السؤال أسئلة كثيرة ملغزة. فلماذا حاولت الانتحار مجددًا؟ ولماذا تحاول الانتحار؟ ومن هو يحيى؟ وما هي قصته؟ وهل يحيى هو السبب في رغبتها في الانتحار؟

شعور بالاشتياق بدأ ينمو في قلبي يومًا بعد يوم تجاهها، شغفي بها تزايد، ورغبتي الملحة في معرفة أسراراها تعاظمت، لكني تمنعتُ عن رؤيتها، وتجنبتُ الحديث معها، تجاهلتُ أخبارها، ثم امتنعتُ عن الخروج إلى الشرفة حتى بعد تمام شفائها. وكنتُ أظل في غرفتي طالما أتت لزيارة أختي.

هذا القرار كان تسليمًا مني بفشلي في منعها عن الانتحار وبعثها إلى الحياة مجددًا. ولم يكن واضحًا أمام نفسي كما لاحظتُ بعد ذلك، فقلبي كان يُخيلُ إليَّ أني لم أتخذ قرارًا بعد فيما يجب علي فعله تجاهها بعد أن حاولت الانتحار مجددًا، وكان هذا الإيهام راجعًا إلى ضميري الذي كان يؤلمني شدة الإيلام كلما شعرت أني تخليت عنها وتركتها هكذا فريسة لأفكارها المشتتة وأهدافها المشوشة. فكنت كلما شعرت بتأنيب الضمير، أفسح لقلبي المجال حتى يُوهمني بأنه لم يتخذ قرارًا بعد في أمرها.

وبعد أن مر شهر عن امتناعي عن مقابلتها، شعرتْ شروق أني قد ابتعدت عنها وأني ما عدت أفكر في ثنيها عن الانتحار. فذكرها تلاشى أمام أصدقائي. وما كنت أذكرها–على

غير عادتي- إلا إذا سألني عنها أحدهم، وإذا حدث ذلك، فكنت أرد بردود مقتضبة، وكانت تلك الردود في اقتضابها كفيلة بأن تمنع هؤلاء الأصدقاء عن طرح المزيد من الأسئلة حولها.

لما أخبرت شروق أني ابتعدتُ عنها، اتهمتني أني أحببتها، وأني نظرتُ إليها كشريك مناسب لحياتي، وأني ابتعدتُ عنها لما علمتُ أنها تُفكر في الانتحار مرة أخرى. قالت (لما حاولتْ الانتحار مجددًا علمتَ أنها ستموت وتفارقك في أي وقت، لذلك قررت اختيار الفراق عاجلًا وعن رضى بدلًا من أن تُجبر على هذا الفراق وتذوق مرارته بعد ذلك..).

تجادلنا كثيرًا في هذا اليوم، كانت متحفزة جدًا تجاهي، وتقول عني كلامًا يطوي بين جوانبه أني شخص أناني ما لبث أن تخلى عن الفتاة بمجرد أنها أفسدت عليه فكرته ومشروعه.

كلماتها كانت جديرة بأن تلهب ضميري، وتجعلني أعيد النظر في الأمر كله، شعرت بعدما أذكت كلماتها لدي شعورًا بحجم المسئولية التي ألقيت على عاتقي، أني أتحمل ما لا طاقة لي به.

مرت ثلاثة أيام على حديثي معها، كانت أيامًا صعبة ثقيلة على قلبي، كنت فيها كثير الانشغال والتفكير بأمرها، بدأ الأرق يتسلل إلى فراشي فلا أعرف للنوم سبيلًا، أظل أتقلب على الفراش حتى مطلع الفجر، وإن غفوت بعد ذلك فكنت أرى

أحلامًا مخيفة. رأيتُ في اليوم الثالث أنها مُعلقة بحبل من الشرفة، وكانت تصرخ وتستغيث بي، وجلبت سكينًا فقطعت الحبل الذي كانت متشبثة به، فقالت وهي تسقط في صراخ: (أنت من قتلني!).

قمت من هذا الحلم خائفًا فزعًا. وأدركت من حينها أني سأعيش عذابًا أليمًا ما لم أتخذ قرارًا يُريح ضميري تجاهها. فكرتُ في الأمر مليًا إلى أن وجدت أنه لا حل إلا بإطلاع والدها على المشكلة، لعل يكون لديه سبيلًا لكي يهدي ابنته ويخرجها من دوامة الذكريات البائسة التي كانت تتخبط فيها. ورأيتُ أني كلما أسرعت لأخبر والدها، فإن هذا أفضل لي ولها، لذلك قررت أن أخبر والدها فور عودتي من الكلية.

عُمر كان على علم بالحديث الذي دار بيني وبين شروق قبل ذلك بأيام، أخبرته بما أنوي فعله ولم ينكر علي ذلك، كان يعلم أن ليس لي في الأمر من شيء، لكنه سألني عن رأي جدي فيما أنوي فعله، فانتبهتُ أني لم أعرض هذا الأمر عليه من قبل، فعقدتُ العزم على السفر إليه في صباح اليوم التالي.

الفصل العاشر

في صباح ذلك اليوم، عندما استيقظت، تمنيتُ أن يكون هذا اليوم يوم الخلاص، وآملتُ أن أجد حلًا لدى جدي أستطيع به أن أريح ضميري وأبرئ نفسي إذا حاولت لمى الانتحار مرة أخرى.

حل فصل الربيع في تلك الأيام، فكان الجو مشمسًا، والسماء صافية، والعصافير تزقزق مجتمعة، تعزف فرحة لاستقبال هذا الفصل البهيج. واكتست أشجار المدينة باللون الأخضر البهي، فملأت النفوس راحة وابتهاجًا، وأصبح الجو معتدلًا لا يخلو من نسمات الهواء البارد العذب.

وصلتُ إلى أسيوط، وكانت الشمس في كبد السماء، وكان الجو حارًا بعض الشيء كأنما ليس لهذا الطقس صلة بما شهدته من طقس عذب في صباح ذلك اليوم. خرجتُ من القطار متجهًا إلى أحد مباني المحطة محتميًا بها من حرارة الشمس المحرقة، إلى أن يأتي صديقي عامر الذي اتفقت معه أن نتقابل فور خروجي من القطار.

اتفقت معه أن أذهب إلى الكلية التي تدرس بها إسراء قبل أن أذهب إلى البلدة لمقابلة جدي.

كان قلبي يزداد اضطرابًا عند كل خطوة خطوتها نحو الكلية التي كانت تدرس بها، كنتُ أفكر فيما يجب قوله، بعد أن ابتعدتُ عنها كل تلك الفترة دون توضيح مني عن أسباب هذا الهجر. وما كنتُ أستطيع وقتها أن أخبرها أني عندما ابتعدتُ عنها وانتقلتُ للسكن في المدينة، بحثتُ لها كثيرًا في أعماق قلبي عن ذرة شوق أو لهفة يحتفظ بها قلبي تجاهها، لكنني لم أجد لها في قلبي شيئًا، فظننتُ أن علاقتي بها كانت مجرد تعود، وأني لم أحبها قط.

رحتُ أبحث عنها في أروقة الكلية المختلفة، إلى أن علمتُ من أحد الموظفين أن أقسام الدفعة الأولى تحضر محاضرة في ذلك الوقت، ولن تنتهي إلا بعد ساعة تقريبًا؛ فجلستُ مع صديقي عامر في إحدى الاستراحات إلى أن يحين انتهاء المحاضرة.

لما انتهت المحاضرة، بحثتُ عنها بين جموع الطلاب التي كانت تخرج من القاعة كالأمواج المتقاذفة، إلى أن وجدتها–بعد أن انحصرت الأعداد– خارجة مع إحدى صديقاتها، فازداد قلبي اضطرابًا بمجرد رؤيتها.

كانت فتاة حسنة الوجه، مرحة الأسلوب، متوسطة الطول، ذات بشرة صافية بيضاء لا تخلو من حمرة وردية في وجنتيها، وعينين عسليتين كانتا تلمعان كلما ابتسمت تلك الابتسامة التي طالما حملتني على التفاؤل كلما رأيتها.

حينما رأتني واقفًا غير بعيد عنها، اضطربت هي أيضًا، وانحصرت ابتسامتها الخلابة قليلًا، لكنها استطاعت السيطرة على إضطرابها بعض الشيء عندما ذهبتُ إليها، كما أنها استعادت ابتسامتها كما كانت، وقالت بعدما اقتربتُ منها:

-مهاب! ماذا تفعل هنا؟

قلت لها باسمًا:

-جئتُ لمقابلتك... كيف حالك؟

-بخير.

-كيف حالك أنت؟

-الحمد لله.

ظللتُ أنظر إلى عينيها اللامعة وابتسامتها المرحة دون حديث، قالت مازحة كأنها تستنكر ذلك:

-ماذا؟

-ابتسامتك.

-مالها؟

-تجعلني أشعر بالتفاؤل.

قالت بنبرة مازحة:

-ها أنت أصبحت دبلوماسيًا كبيرًا... تقول كلامًا معسولًا.

مكثتُ معها حوالي نصف ساعة، شردتُ خلالها كثيرًا، وتوهت بين عينيها وابتسامتها، وشعرتُ بالرهبة التي كانت تعتريني في صغري كلما تبدت لي.

حدثتني عن أخبارها خلال العامين الماضيين، وعن حياتها الجامعية. قالت لي بعد أن كادت القصص والأخبار تنتهي بيننا:

-لماذا لم تسأل طوال تلك الفترة؟

وكتارك الصلاة الذي فاجأه الموت، فوجئت بهذا السؤال على الرغم من يقيني بأنه لا مفر من أن تسألني سؤالًا كهذا.

قلت لها:

-لا أعلم... تغيرتْ أمور كثيرة بعد أن انتقلت للعيش في القاهرة.

لازمتْ الصمت، كانت تنتظر مني المزيد، فأكملتُ:

-الحقيقة يا إسراء أني منذ أن تركت قريتي بدأتُ أنظر إلى علاقتنا بطريقة أكثر وعيًا. فعندما ذهبت إلى القاهرة كنت أشتاق إليكِ دومًا، لكني كنت أحاول عدم مهاتفتك أو الحديث معك حتى أجعل كل تركيزك مقتصرًا على الدراسة فقط خاصة أنكِ كنت وقتها لاتزالين في الصف الثالث الثانوي. فلما قضيتُ بضع شهور في بُعدي عنك، وجدتني تعودت على فراقك، فارتأيت أن ما كان بيني وبينك قد يرجع إلى التعود فقط.

سمعت كلامي في إطراق تام، ثم قالت في صوتٍ خفيض:

-إذا كان هذا ما تراه يا مُهاب فلا بأس.

كان لديها من الرزانة والتعقل ما يمنحها القدرة على التصرف بطريقة لائقة في أي موقف، وخاصة موقفنا هذا، لكنها، قالت تلك الكلمات وذهبت.

شعرتُ بالدهشة والصدمة مما فعلته، لكني رغم ذلك شعرت بالراحة والرضا، فما عادت مسألتها تقلقني، وعلمت أن حديثنا هذا الذي هو الأول والوحيد منذ سنتين، أصبح الأخير أيضًا. وهكذا اتجهت إلى قريتنا لمقابلة جدي، لعله يستطيع أن يساعدني في إيجاد حل يجعلني أبرأ أمام نفسي من دم تلك الفتاة إذا ما حاولت الانتحار مرة أخرى.

لما وصلتُ إلى القرية، كادت الشمس تختفي من وراء الحقول والأشجار البعيدة، فعلمت أن جدي سيكون في المسجد لأداء صلاة المغرب، فقررت الذهاب مباشرة إلى المسجد للصلاة معه.

لما أنهيتُ الصلاة معه، عدنا سويًا إلى المنزل. كان في العقد الثامن من عمره، من يراه كان يظن أنه لم يبلغ سوى السبعين عامًا، كان ظهره مستقيمًا خال من إنحنائة أصحاب الثمانينات. بشرته كانت قمحية اللون، ذو لحية بيضاء كانت تضفي عليه وقارًا واحترامًا، كان من كبار شيوخ القرية الذي يلجأ إليه الناس في المجالس العرفية التي كانت بمثابة محاكم أهلية يقيمها كبار الشيوخ من أهل القرية من أجل النظر في أمور الناس، فتنظر في أمر المتخاصمين، وتحكم لمن له الحق، وكان جميع أهل القرية يمتثلون لتلك الأحكام كبيرهم وصغيرهم.

عندما جلسنا، ظللنا نتحادث في كل الأمور إلا الأمر الذي جئت إليه من أجله. إلى أن قال لي بصوته الجهور:

-هيا يا بني لنأكل أولًا ثم ننظر في الأمر الذي جئتني من أجله.

حول مائدة الطعام فكرتُ فيما يجب قوله، وفي الطريقة المثلى لذلك، لكني فور ما انتهيت من طعامي، وبينما كنا

نتناول الشاي في ردهة المنزل الفسيحة رُحت أعرض عليه قصتها في شيء من التسلسل والإسهاب، وكان إنصاته وإصغائه التام لي خير مشجع ومحرض على البوح بكل ما لدي من مخاوف وأحداث.

كان جدي يرشف رشفات من كوب الشاي عندما بدأتُ الحديث. لما سمع ما قلته بأنها تحاول الانتحار، وضع كوب الشاي الذي لم يكن قد فرغ منه بعد على المنضدة، ثم إنحنى ساندًا ذقنه إلى العكاز، وظل هكذا مصغيًا إلي أن انتهيتُ من سرد القصة بكل تفاصيلها.

سأل:

-أنت إذًا ابتعدت عنها لأنك علمت أن محاولاتك لن تجدي معها نفعًا؟

-نعم.

- كم مر من الوقت على محاولة الانتحار الأخيرة؟

-مر عليها شهر ونصف تقريبًا.

-ولماذا لم تمت في المحاولة الثانية؟ ألم تسقط من الطابق الثالث؟

-اعتقد أنها لم تمت لأنها سقطت على سقف إحدى السيارات التي كانت متوقفة تحت شرفتها.

أرجع الرجل العجوز رأسه إلى الخلف، اعتدل في جلسته، وقال:

-عرفت إناسًا كثيرين يا بُني فكروا في الانتحار مرة واحدة ثم أخرجوا تلك الفكرة السيئة من رؤوسهم. قد يأتي الانتحار كفكرة خاطفة مجنونة لكن ما يلبثُ الشخص أن يبعد تلك الفكرة عن رأسه. ولقد رأيت موقفين لشخصين في قريتنا حاولوا الانتحار، قال لي أحد هذين الشخصين بعد ذلك أنه كم تمنى أن يجد شخصًا يقول له لا تفعل ذلك، كان يتمنى أن يمنعه شخص ما، قال لي ذلك الرجل (إذا قال لي أي شخص لا تفعل هذا وقتها. كنت سأمتنع عن فعل ذلك فورًا).

قلت له:

-لكن يا جدي ليس كل الذين يفكرون في الانتحار متشابهون في أنهم يفكرون فيه لمرة واحدة فقط.... لقد قرأت أن مريض الاكتئاب قد يفكر في الانتحار وفقًا لفصول السنة التي يكرهها مما يعني أنهم يفكرون في الانتحار كلما وافقهم ذلك الفصل الذي يكرهونه.

-قد يكون هذا صحيحًا، لكنك لا تنظر إلى الأمور بروية. أخبرتني أنها لم تنكر محاولتها الأولى. هل هذا صحيح؟

-نعم.. صحيح.

-إذًا لماذا تنكر المحاولة الثانية طالما أنها لا تخشى معرفتك. ثم إنها لماذا قررت السقوط في الوقت الذي صادف فيه وجود سيارة تقف تحت شرفتها، على الرغم من أن أي شخص عاقل سيعلم أن السقوط من الشرفة على السيارة حتى

لو من الطابق الثالث قد يخفف من شدة السقوط وبالتالي قد لا يؤدي إلى الموت.

سألته مدهوشًا:

-أتقول أنها لم تحاول الانتحار مرة أخرى؟!

-نعم... قد تكون سقطت سهوًا بالفعل يا بني.

-لكني أخبرتك من قبل أنها تفكر في الانتحار دائمًا.

-إذا كانت فكرة الانتحار دائمة هكذا في ذهنها. فلماذا لم تفكر في الانتحار مرة أخرى خلال الشهر والنصف السابقين؟

انعقد لساني عندما سألني جدي هذا السؤال، كان يبدو أن كلامه يستند إلى بعض المنطق، قام بربط الأحداث ببعضها وجعلها منطقية كل المنطق، لمجرد أنه افترض أنها لم تكن تكذب عندما أخبرتني أنها سقطت من الشرفة سهوًا.

تعجبت من نفسي وقتها، لماذا لم أفكر بتلك الطريقة التي فكر بها جدي عندما عالج هذا الموضوع. قلت لنفسي أني ربما لم أستطع النظر إلى الأمر بهذه الطريقة لمجرد أني وضعتُ نفسي ضلعًا في تلك المشكلة، لم أنظر إليها من الخارج كما نظر إليها جدي، فالذين يقعون في المشاكل قد يعجزون عن حلها على الرغم من أنهم قد يكونوا بارعين في حل مشاكل الآخرين التي لا تختلف كثيرًا عن مشاكلهم.

لكن لماذا أخطأ أصدقائي أيضًا، لماذا فاتتهم تلك التفاصيل، لماذا لم ينظروا إلى الأمر كما نظر جدي إليه، هل سردي الدقيق لكل ما لدي من أحداث وتفاصيل كان السبب في نظرة جدي الواعية لهذا الأمر؟

عُدت إلى جدي سائلًا:

-أترى أن فقدانها لأمها قد يكون سببًا كافيًا لتفكيرها في الانتحار؟

-ربما يكون سببًا كافيًا! حاول أن تخفف عنها تلك الأحزان يا مهاب. أخبرها يا بني أن الدنيا دار ابتلاء، فكيف لنا أن ندخل الجنة دون اختبار من الله ونحن قد تربينا جميعًا ونشأنا على عبادته، كيف يدخلنا الله الجنة

وقد نشأنا على صراطه المستقيم دون صعاب أو مشقات في البحث عن هذا الصراط، إننا إن اجتزنا اختبار الإيمان بالله لأننا تربينا عليه، فإن الله يختبرنا بالمصائب يا بني لينظر أي شحص سيصبر على تلك المصائب ويحتسب ثوابه عند الله.

جاءت هذه الكلمات بردًا وسلامًا على قلبي، وشعرتُ بالطمأنينة، وعلمتُ أن هناك أمورًا كثيرة يجب أن تتبدل وتتغير، فمجرد الذكريات الحزينة من السهل نسيانها إن كانت الفتاة راشدة، وكانت فكرة الانتحار مجرد فكرة ظهرت أمامها عندما تكالبت الذكريات عليها، وأنها سرعان ما عادت إلى رشدها بعد

مرور تلك الفترة. لذلك فما الذي يمنعني من العودة إليها طالما اختفت الأسباب التي كانت تمنعني من ذلك.

هكذا وجدتُ قلبي يزداد حنينًا وشوقًا إليها، لمجرد أن قال لي أحدهم أنها لن تحاول الانتحار مرة أخرى، وظننتُ أني كنت في انتظار أن يقول لي أحدهم هذا الكلام وسأصدقه سريعًا. وهذا لا يمنع أني كنت أرى أن توقعات جدي وتفسيراته ربما تكون صحيحة، لكني رأيتُ فيما بعد أني كنت سأصدق ما قاله جدي أيضًا حتى ولو كان كلامه غير مقنع ولا يستند على المنطق.

****

معلومة وصلت إليه من صديقه، أخبره أن الكتيبة التي اعتقلت حبيبته، هاجمهتها فصائل المعارضة، خلال نفس الأيام. قال له، ربما أطلقت فصائل المعارضة سراحهم، وربما يكونوا الآن في لبنان.

ظن أن هذه المعلومات نزر يسير مقارنة بمخاوفه وتوهماته، فكر في معرفة المزيد من أفراد وجنود الكتيبة نفسها، كان أمرًا عسيرًا على أي أحد خاصة في هذا الوقت الحالك الذي تمر به الدولة، لكن علاقاته توغلت، ونفوذه تشعب، حتى استطاع عن طريق غيره، أن يعلم هوية بعض الرتب والجنود في تلك الكتيبة.

ذهب إلى أحد الجنود، لكنه خشي الحديث، ورفض البوح عن أي شيء، كان الخوف يأخذه، لكن هذا الخوف سرعان ما تلاشى عندما وعده يحيى بأن هذه الأمور لن تضره في شيء، وأنه سيقوم بنقله إلى الخدمة في مكان أكثر أمانًا إذا تعاون معه وأعطاه معلومات ذات فائدة.

وافق الجندي، كأنه كان ينتظر عرضًا كهذا، وبدأ يحيى ينهال عليه بإسئلته:

-أنت تذكر جيدًا اليوم الذي تعرضتم فيه لغارة من مسلحي المعارضة؟

-نعم.

-أتذكر ما حدث قبلها بيوم واحد

-نعم... أصبنا أحد أبناء قيادة كبيرة في الجيش عن طريق الخطأ، وقامت الدنيا وقتها، ولكنه لم يمتُ وتم نقله إلى دمشق للعلاج.

-وفي هذا اليوم اعتقلتم بعض المواطنين الذين حاولوا الفرار إلى لبنان؟

-في ذلك اليوم؟ نعم.

وصف يحيى للجندي حبيبته وملامحها والملابس التي كانت ترتديها، فتفكر الجندي، قليلًا ثم قال:

-نعم... تم اعتقالها، ولكن بعد أن أغار علينا الجنود، فُتحت لهم السجون وفروا.

تلاعب الأمل في قلب الفتى، وابتهج عندما تذكر أنها ربما هي في لبنان الآن، لكن الجندي قال له:

-هناك سرًا أريد أن أبوح به لك!

الفصل الحادي عشر

في صباح اليوم التالي، عُدتُ إلى المدينة، وأصبحتُ أتحين الفرص وأنتهزها لمقابلة لمى مرة أخرى، وإعادة الوصل معها، بعد أن قطعته يأسًا وتشاؤمًا. بعد مغيب شمس ذلك اليوم، خرجتُ إلى الشرفة للمرة الأولى منذ ما يزيد عن أربعين يومًا، نظرتُ إلى شرفتها وجدتها موصدة أبوابها، فظللتُ واقفًا هناك لعلها تفتحها وتخرج في ذلك الوقت. لكنها لم تخرج، فعدتُ إلى غرفتي مرة أخرى.

ومرت ثلاثة أيام، لم تخرج فيها إلى الشرفة، ولم تأتِ لزيارة أختي دينا. فاستغربتُ ذلك الأمر كثيرًا؛ لأنها كانت من قبل دائمة الخروج إلى الشرفة كل يوم. وأشرقت الشمس أربع مرات، ولمى لم تشرق خلالها مرة واحدة، ولما غابت شمس اليوم الرابع، مللتُ انتظارها، وعدتُ إلى غرفتي وقد تسلل اليأس إلى قلبي، حتى ظننتُ أنها لن تخرج أبدًا.

وتراكمت الايام، ومع مرورها تبين لي الأوقات الجديدة التي تخرج فيها إلى الشرفة، كانت تخرج بعد منتصف الليل، وأحيانًا عند شروق الشمس.

كنت أتحين تلك الأوقات لأذهب للتحدث والتسامر معها، ومع مرور تلك الأيام بدأت رغبتي في معرفة قصتها تتضاءل مقارنة إلى رغبتي المتزايدة والمضطردة في التقرب والتعرف عليها.

وشعرتُ بقربها، بدماء جديدة تُضخ إلى عروقي المنسدة، واتخذتْ دقات قلبي إيقاعًا جديدًا بعد عودتي لها، كأنها تعزف مقطوعة حب غائرة في القدم، وظننتُ أني زهرة عباد شمس، لا حياة لها إلا إذا رأت الشمس، واستقبلت بنهم أشعتها الذهبية.

كنت أتحدث معها كلما اجتمعنا، الكلمات كانت تجذب بعضها بعضًا مع مرور الوقت. كانت في البداية شديدة التحفظ في حديثها معي منذ عودتي إلى الحديث معها من جديد. لكن بمرور بضعة أسابيع لاحظتُ أن هناك تجاوبًا وتفاعلًا مع ما أقوله من أشياء.

كانت رغم نضرتها وبهاءها، تشعر بكثير من الملل، لم يكن لديها ما تتشاغل به، على الرغم من أني أحضرت لها بعض الكتب والروايات لتقرأ فيهم وتجد ما يشغل بالها، إلا أنه ظل

هناك وقت كثير في يومها يمر دون أن تقوم بأي شيء. اشتكت لي قبل ذلك، فاقترحت عليها الالتحاق بالجامعة والدراسة من جديد، كانت ترفض في البداية. لكنها وافقت مع مرور الوقت، حتى اتفقت معها على أن تتقدم للالتحاق بالكلية بداية العام الدراسي الجديد.

عندما سألتها في ذلك اليوم كيف كان يومها، عادت لتشتكي من جديد ذلك الفراغ الذي يملأ أوقاتها، قلت لها مُواسيًا:

-لا بأس... كلها أشهر وستلتحقين بالجامعة وتملأين هذا الفراغ.

امتقع وجهها عندما قلت ذلك، سألتها:

-ماذا؟

أجابت:

-كنت أظن عندما أتيت إلى مصر منذ خمسة أشهر، أن الأمور ستهدأ في سوريا، وأني سأعود إلى بلدي العام القادم على أكثر تقدير. لذلك فحديثك عن الالتحاق بكلية في القاهرة يجعلني أشعر بانقباض في صدري لمجرد أني سأعيش سنة أخرى بعيدًا عن وطني.

تأثرتُ كثيرًا عندما قالت ذلك، حاولت أن أخفف عنها الأمر وأهدئ من حزنها، قلت لها:

–من يعلم... فقد تعودين إلى الدراسة بجامعتك العام القادم.

قلتُ لها ذلك، رغم علمي بأن ما يدور في سوريا، أكبر من أن ينتهي العام القادم أو حتى الذي يليه، كانت الأمور متأزمة هناك، وتأكدنا من ذلك عندما كُلفنا بعمل بحث عن الثورة السورية أو الأزمة السورية كما قال بعض الأكاديميين بعد ذلك. فوجدنا أن الأزمة في طريقها إلى تعقيد وتأزم أكثر مما هي عليه، بعد أن ظهرت بوادر تؤكد أن سوريا ستصبح مسرحًا للقوى الإقليمية والدولية في وقت قريب.

قالت لي في ذلك اليوم (بمجرد أن ينتهي الصراع في سوريا، سنعود إلى وطننا حتى لو لم نجد مبنًا واحدًا قائمًا هناك) كانت تقول (يجب أن نعود إلى هناك حتى ندفن في وطننا).

وفي ذلك اليوم أكملت قصتها.

(٣)

بعدما حدث هذا الانفجار الذي لم يكن بعيدًا عن منزلنا، سمعت والدي يقول لأمي (والله لو طلع علينا النهار ونحن على قيد الحياة لنخرجن من تلك البلدة).

عندما قال والدي ذلك أيقنت أن حياتي كلها ستتغير، كما أيقنت أن حياتي الهنيئة المطمئنة التي كنت أعيشها هناك لن تكون بعد ذلك إلا حياة غربة وترحال من بلدٍ إلى آخر.

في اليوم التالي جاء إلينا والدنا، وطلب منا أن نستعد للسفر. قال أنه سأل عن إمكانية السفر من خلال مطار دمشق الدولي، لكنَّ بعض أصدقائه خبروه أن السفر من خلال المطار سيكون صعبًا خاصة أن النظام السوري بدأ ينظر إلى ما يحدث في سوريا على أنها حرب طائفية؛ لذلك قد يشتبه أمن النظام في والدي خاصة أنه كان من منطقة تشتهر بشدة ثورتها على بشار.

كان لدى والدي بعض الأصدقاء في لبنان، اتفق معهم على أن يجهزوا له منزلًا هناك بدلًا من السفر إلى تركيا. قال في ذلك اليوم (لا أريد الخروج من سوريا، وطالما أني مجبر على ذلك، فسأذهب لأي بلد عربي... أصدقائي هناك وسيساعدونا).

والدي علم بعد ذلك أن هناك بعض المُهربين الذين يقومون بتهريب الأسر إلى لبنان مقابل مبلغ من المال، هؤلاء المهربون يدفعون مبالغ مالية للقوات والدوريات التابعة للنظام السوري. عندما اقترح على والدتي هذا الاقتراح، قالت:

–لن يكون الطريق آمنًا، فقد تعترض قوات النظام طريقنا، وأنت تعلم أنهم لن يتركونا، ثم إن الطريق وعر بين لبنان وسوريا.

في ذلك اليوم رد والدي:

–ماذا سنفعل يا أم لمى... هذا هو المتاح، وبإذن الله سنصل سالمين إلى لبنان. صديقي أخبرني أن هذا المُهرب وجماعته على علاقة وثيقة بالنظام، ثم إننا إذا متنا ونحن نسعى للحياة خير لنا من أن ننتظر الموت هنا.

لم يكن والداي يدركان أني كنت أستمع إلى ما يقولونه من خلف باب غرفتي؛ لأني عندما كنت بينهم كانوا يقولون كلامًا

غير ذلك، كانوا يحاولون إيهامي بأن رحلة الهروب إلى لبنان ستكون يسيرة وسلسة خالية من المشاق والصعاب.

في اليوم التالي ذهبتُ إلى صديقتي رنا؛ لأخبرها بأننا سنسافر إلى لبنان، ولم تتفاجأ، وأخبرتني أنها ستسافر إلى مصر مع أسرتها. فعمها الذي يعيش هناك سيوفر لهما مسكنًا كما سيوفر عملًا لوالدها.

كنت أشعر بالحزن لأني سأفارق صديقتي وكذلك منزلي وموطني.
وكنت كل يوم وكل صلاة أدعو الله أن يرحمنا من هذا البلاء، وأن ينتهي هذا الأمر قريبًا قبل أن نخرج من وطننا، ونصبح مشتتين في أرجاء الأرض، ومقسمين بين أنحائها.
كنتُ أتمنى أن تحدث معجزة، فينظر هؤلاء وهؤلاء إلى ما يفعلوه من أفعال غير مسئولة، ومن ثم يعودون إلى رشدهم ويحتكمون لعقولهم، إلا أن الله لم يستجب دعائي بل إزداد الأمر سوءًا، وانتشرت أعمال القتل والعنف في البلاد، وعاث أبناء الأسد في الأرض فسادًا، لذلك لم يمر أسبوع واحد حتى أتى إلينا والدي ليخبرنا أننا سنسافر في اليوم التالي. قال أنه قام بتدبير مبلغ من المال بعد أن باع جميع ما لديه من بضائع في المخازن، وبعد أن أنهى تجارته جميعها هناك.

والدي كان مستاءً في ذلك اليوم؛ لأن المهرب قد رفع المبلغ الذي يطلبه من أجل الهروب إلى ألف دولار لكل فرد بحجة أن بعض الناس الذي اتفق معهم من لبنان لتيسير الهروب قد رفعوا من أجرتهم مقابل مرافقة الهاربين إلى داخل الآراضي اللبنانية. قال والدي في ذلك يوم:

-والله ما هؤلاء ببشر، إنهم يستغلون ما نمر به من ظروف، ويتاجرون بنا.

وعلى الرغم من استياء والدي، فقد دفع المبلغ الذي طلبه المهرب عن سخط وكره، وأمرنا أن نحمل متاعًا خفيفًا لأن الرحلة ستكون طويلة.

في اليوم الأخير الذي قضيته في منزلي، ودعتُ صديقتي رنا، قالت لي:

-لا تقلقي ستنتهي هذه الأزمة، وسنعود إلى هنا مرة أخرى.

بكيتُ كثيرًا في ذلك اليوم، لم يكن الأمر بالهين خاصة عندما تجد نفسك مجبرًا على ترك وطنك وأصدقاءك ومنزلك وحياتك كلها ثم تذهب إلى بلد غريب وإناس لا تعرفهم ولا يعرفونك. في ذلك اليوم رفعتُ يدي إلى السماء ودعوت الله أن يُعيدني إلى بلدتي حتى ولو بعد حين.

وكأن هذا اليوم يأبى أن يمر إلا أن يزيد من همومنا وأحزاننا همًا جديدًا، فعندما حل المساء جلست مع والدتي أنتظر قدوم والدي الذي كان قد تأخر على غير عادته، فمكثنا ننتظره طوال الليل دون جدوى إلى أن بدأ القلق يعتمل في صدورنا، وساد الخوف في قلوبنا عندما دار بخلدنا أن والدي ربما يكون قد تم توقيفه على أيدي قوات النظام.

ظللنا في ترقب وقلق متواصلين إلى أن اتصلت أمي بصديق والدي أبي عمار، أخبرنا الرجل أن والدي اعتقلته قوات النظام، وأخبرنا أنها مجرد حالة اشتباه وأن والدي سيخرج خلال أيام.

كانت المساجد حولنا ساكنة في ظلام الليل البهيم، لكنها سرعان ما نفضت عن صمتها فصدعت بآيات قرآنية إيذانًا منها باقتراب طلوع الفجر، فتوقفت لمى عند ذلك متعللة بأن النهار يوشك على البزوغ. لما قالت ذلك تذكرتُ شهرزاد، التي كانت تكف عن الكلام كلما صاح ديك الصباح. فقلت لها:

-إنكِ تذكريني بشهرزاد.

فسألت:

-في أي وجه من الوجوه أشبه شهرزاد؟ فشهرزاد كانت تحكي الأساطير من أجل التسلية والترفيه عن الملك.

-لست تشبهينها من هذا الوجه... لكنك تشبهينها من حيث الكف عن الكلام كلما طلع النهار.

ابتسمت قائلة:

-هذا أمر طبيعي.

-ليس هذا فقط.

-ماذا أيضًا؟

-فأنا أشبه الملك عندما أستمع أو أنظر إليك، ليس هذا تشبيه سطحي، بل إني أشعر حقًا أني ملك عندما تكونين بجواري.

اضطربت بعض الشيء، واختلجت عيناها، لكنها قالت:

-أنت ملك فعلًا... لكنك ملك الكلام.

وتركتني وذهبت إلى غرفتها، ولو كان وجهها اكتسى بعلامات الحزن أو الضيق، لكنت ظننت أني أغضبتها، لكن وجهها لم يعبر عن غضب أو سرور، ففطنت أنها خجلت من كلامي، ولم تجد مخرجًا من ذلك إلا بالهروب من الشرفة.

وحقًا لم أكن كاذبًا، عندما قلتُ ذلك، فكلما كنت أجتمع بها، كنت أسأل نفسي ماذا أريد من الدنيا بعد ذلك، فأرى أني لا أريد شيئًا إلا هي، فكنت أشعر حينها أني ملك قد خضع له كل ما تطيب به النفوس وتروق له القلوب.

في صباح اليوم التالي، قابلتني شروق، أخبرتني أن عُمر باح أخيرًا عن حبه، سألتها متلهفًا:

-كيف حدث هذا؟

قالت في مزاح:

-دعه يخبرك هو.

سألتها:

-ألم تتفقا على شيء؟

-اتفقنا أن يتقدم لي في آخر هذه السنة الدراسية...

باركتُ لها مُقدمًا، وأخبرتها أن عُمر لن يخلف وعده كما يفعل معظم شبابنا، قلت لها:

-عُمر مختلف.

قالت:

-أعلم... ولذلك أحببته.

شعرتُ بالتفاؤل، فكرتُ في لمى وقصتها، فظننتُ أنها ربما تتحسنُ وتعود إلى حياتها، وتنفض هذا الحزن الذي يرقد بين أضلاعها.

الفصل الثاني عشر

مرت عدة أيام حدث خلالها أمر لم يأتِ على ذهني أو ذهن أحد من أصدقائي، ففي أحد الأيام التي كنت أجلس فيها مع أختي دينا؛ لأشرح لها بعض الدروس في مادة الفلسفة والمنطق، وقعت عيناي على لوحة مرسومة تحت المنضدة فرفعتها من هناك، ووجدت في الصورة فتاتين تبتسمان، ولم أحتاج لكثير من الوقت لأعلم أن إحدى تلك الفتاتين هي لمى، فسألت أختي في دهشة:

-لماذا رسمتي صديقتك مع لمى في لوحة واحدة؟

نظرت إلى اللوحة، وقالت:

-ليست صديقتي... إنها صديقة لمى.

-رأيتها معك ذات يوم!

ضحكت كأنها تسخر مني، قالت:

- هي صديقة لمى.

-أقسم لك أني رأيتها من قبل.

أخرجت صورة صغيرة، عرضتها علي، ثم قالت:

-ربما رأيت تلك الصورة... كانت على المكتب هنا منذ أسبوعين.

قلت لها بعدما نظرتُ إلى الصورة:

-لا، لم أرَ هذه الصورة إلا الآن.

-لا يعقل أن تكون تلك الفتاة تسكن بالقرب من هنا، وأنك تراها من وقت لآخر؟

-ربما!

لبثتُ أتذكر لعدة أيام متى رأيتُ تلك الفتاة، لكني فشلتُ في ذلك، فرُحتُ أتطلع إلى وجوه كل الفتيات التي كنت أراها أثناء ذهابي وإيابي للجامعة لعلي أكون قابلتها ذات يوم. قال لي صديقي عمر (من الصعب أن تكون رأيت تلك الفتاة في الشارع؛ لأنك لو رأيتها في الشارع فمن المستحيل أن تدرك أنك رأيتها من قبل بمثل هذه السهولة).

قلت للمى بعد ذلك أني رأيت صديقتها يومًا ما، فرحتْ كثيرًا لكنها شعرت بخيبة أمل تعادل فرحتها عندما فشلتُ مجددًا في تذكر أين رأيتُها. قلت لها ربما أتذكرها مع مرور الأيام أو ربما ألقاها مجددًا كما لقيتها من قبل. سألتها:

-ألم تفكري في البحث عنها منذ مجيئكِ إلى مصر؟

-فكرتُ كثيرًا في البحث عنها، لكنَّ الأمر في غاية الصعوبة، فلا أعلم في أي مدينة تسكن، وليس لدي عن عمها أي معلومات، ولم يخطر ببالي أني سأترك لبنان لأعيش هنا في مصر.

-سأتذكرها بإذن الله فذاكرتي قوية.

-أتمنى ذلك.

وأكملت قصتها.

(٤)

شعرت بحزن أليم عندما أخبرتني أمي بما قاله أبو عمار، وشعرت بإنقباض في صدري عندما وجدتُ نفسي وكذلك والدتي دون والدي الذي كان بمثابة الملجأ الذي نحتمي به من مصائب الدنيا.

كانت تلك الساعات التي تسبق طلوع الفجر ثقيلة على قلبي، ظللت خلالها جالسة على الفراش ذاهلة أنظر في أمر مصيبتي؛ لأني سمعت كثيرًا في تلك الأيام عن إناس تم اعتقالهم من بداية الثورة، ولم يُعرف عنهم شيئًا حتى الآن. كان المستقبل قبل اختفاء والدي موجودًا لكنه كان ضبابيًا بعض الشيء، أما وبعد أن فقدت والدي فقد أصبح المستقبل لا وجود له على الأطلاق.

والدي كان العمود الذي تقوم عليه أسرتنا، لو اختفى هذا العمود فإن أفراد الأسرة سيكونوا بلا مستقبل ولا حاضر، ولو ظل والدي معتقلًا هكذا لكنا فقدنا كل شيء، فقدنا مستقبلنا ووطننا وأماننا. أعتقد أنه لا توجد مصيبة أشد من ذلك. وشعرت بالضياع، وكأن الله يريد أن يبين لي أن مصيبة ترك الوطن ليست أكبر المصائب، وأن مصيبة كفقدان الأب بالإضافة إلى فقدان الوطن لهي المصيبة الكبرى.

لما طلعت شمس ذلك اليوم جاء إلينا أبو عمار، كان يعلو وجهه إبتسامة تنم عن رضا وطمأنينة، وكان محقًا في تعابير وجهه، حين قال لنا أنه تواصل مع أحد العسكريين الذين كانوا يسكنون بحيّنا، وأن هذا العسكري وعده بأن يخرج والدي بأسرع وقت.

سكتت الفتاة قليلًا بعد ذلك، انتهزتُ صمتها، فجلبت مقعدًا لأجلس عليه، ولما استقر بي الجلوس، قلت لها:

-أكملي

عادت تقول:

-علمتُ بعد ذلك أن هذا العسكري هو والد شاب كنت أعرفه منذ الطفولة.

سألتها متسرعًا:

-أتقصدين يحيى؟

نظرت إلي في ذهول، وسألت:

-من أخبرك؟

-كنتِ ترددين اسمه عندما كنت بجوارك في المستشفى.

لم تصدقني في أول الأمر، لكنها تقبلت الموضوع بعد أن أقسمت لها أنها كانت تهذي بالمشفى وأنها كانت تردد اسمه غير مرة.

اتسعت عيناها في دهشة، وسألت:

-هل تلفظتُ بأشياء أخرى.

-لا، ذكرتي فقط والدتك ويحيى.. أخبريني عنه.

قالت وهي تنظر إلى يد الكرسي التي كانت تنحت فيه بإبهامها:

عندما انتقلتُ للسكن في حي صلاح الدين، كنت أبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا. مع مرور الوقت التحقتُ بمدرسة قريبة من مسكني، وكنتُ كلما خرجتُ من مدرستي مررتُ بفتية في مثل سني يلعبون الكرة، ويحيى كان من بين هؤلاء الفتية الذين كانوا يلعبون الكرة.

ذات يوم ركل الكرة بقوة بينما كنت أمر من هناك، فأصابتني في كتفي، واستشطتُ غضبًا وكدت أن أصفعه على وجهه عندما اقترب مني. لكنه كان ودودًا جدًا معي، واستطاع أن يجفف منابع الغضب التي كانت تجري في أعماقي، وتأسف أكثر من مرة. حتى أنه ربت على كتفي، وقال أنه لم يقصد إصابتي.

لم أنتظر منه ذلك وقتها، فقد كان معتزا بنفسه منذ صغره، وكان في معاملته خشنا مع رفاقه الذين كانوا يلعبون معه. لكنه كان لطيفًا ودودًا معي، لذلك لم أستطع صفعه ولم أستطع تعنيفه، فصمتُ أمامه كأنه لم يرتكب خطأ.

عندما تركته، لحق بي. سألني إن كنت أسكن هنا أم لا، فوجدت نفسي أجيبه دون تردد. لما علم أني أسكن في هذا الحي كف عن اللحاق بي، وتركني وكنت أتمنى أن يستمر في ملاحقتي والحديث معي وقتًا أطول. لكنه لم يفعل.

في اليوم التالي طلب من أصدقائه إيقاف اللعب عندما مررت بملعبهم، لحق بي وقتها وفي يده الكرة، أخبرني عن اسمه، ثم سألني عن اسمي. ظننت وقتها أني مضطرة لإجابته، معاملته كانت رقيقة، لا تناسب معاملة أعمارنا، فوجدتُ نفسي أجيبه دون حرص.

اعتاد أن يرافقني كلما مررت من أمام ملعبهم، كان يتحدث معي وكنت أجيبه فقط. جاء أمام منزلنا عندما مرضت وتغيبت عن المدرسة. عندما خرجت بعد ثلاثة أيام، وجدته ينتظرني هناك. قال لي أنه يجيء إلي كل يوم لعله يراني ويسأل عن سبب غيابي.

توطدت العلاقة بيننا، مع مرور الوقت، وجدت ميلا في قلبي إليه، كنت أخرج معه بعد المدرسة في كل الأيام. ونشأت علاقة من الألفة والصداقة بيننا.

ظللنا أصدقاءً لمدة أربعة أعوام، كانت هذه الفترة كفيلة بأن أعشق هذا الفتى. لما فرق بيننا الآباء بحجة أننا قد بلغنا من العمر ما لا يجعلنا نتقابل مجددًا. كان يأتي لزيارتي ليلًا. ينقر على الشرفة ثلاث نقرات فكنت أخرج إليه. وكنا نتحدث بعض الوقت ثم نفترق.

أخبرني في إحدى تلك المرات أنه يحبني، كنت في السابعة عشر وقتها، ظننت أنه سيسمع نبضات قلبي من شدة ابتهاجي. قلت له أني أحبه أيضًا...

مع مرور الأيام، التحق بكلية الحربية، والده كان عميدًا بالجيش السوري، فسهل عليه إجراءات الالتحاق. كانت هيئته في الملابس العسكرية تخطف الأنفاس، وظننت لما رأيته في هذه الملابس أنه يستطيع حمايتي في كل الظروف. لكني كنت مخطئة وقتها.

كنا نظن أن اختلاف المذاهب بيننا لن يكون عائقًا أمامنا، لكننا مع الوقت أدركنا أننا استهنا واستصغرنا هذا العائق، فمع الوقت علمنا أنه لا ينبغي لمسلمة سنية أن تتزوج من شخص علوي.

أخبرتني رنا أن أهلي لن يسمحوا بتزويجي من شخص علوي. قلت لها أنه مسلم في كل الأحوال، طالما أنه مسلم فيحل لي أن أتزوجه، لكن الأمور كانت أكثر تعقيدًا مما تخيلت.

حدثت أمي في الموضوع، سألتها هل يجوز لمسملة سنية أن تتجوز من علوي، أجابتني أن أهل الفقه من السنة يجيزون ذلك. لكن معظم الآباء يرفضون مثل تلك الزيجات.

يحيى كان يخشى أن يفرق بيننا اختلاف المذاهب، لكنه دائمًا كان يخبرني أن كل شيء سيكون على ما يرام. كنت أقول في نفسي كيف للقلوب أن تستوعب اختلاف المذاهب والأديان. ظلت هذه المشكلة ماثلة أمام أعيننا إلى أن فاجأني يحيى ذات يوم، ووجدته يجلس مع والدي في منزلنا.

كنت عائدة من الكلية، لما قفلت الباب وجدته أمامي، شعرت بالصدمة عندما رأيته، لكني استوعبت الموقف عندما وجدت والدي يجلس معه. فابتسمت له بلا إرادة، وتراقص قلبي من شدة الفرح، لكني سرعان ما أدركت أن يحيى بدأ طريقًا مسدودًا، فانقبض صدري وانحسرت ابتسامتي.

لما دخلت عليَّ أمي الغرفة، أخبرتني أن يحيى يطلب يدي من والدي. صدمني تعامل والدي مع هذا الموقف قال لي بعد أن ذهب يحيى (لا أريد لك مثل هذه الزيجة).

تجادلت معه كثيرًا في ذلك اليوم، أخبرته أن لديه أصدقاءً علويين، فلماذا يرفض. قال لي أن المشكلة ليست في أنه علوي، المشكلة في أن هناك اختلافًا بيننا في المذاهب لن يسمح لنا بالعيش تحت سقف واحد.

والدي أبلغ يحيى رفضه الزواج مني، لما أخذني الحزن وركبني الهم، وعدتني والدتي أن تتحدث مع والدي في هذا الأمر مرة أخرى. يحيى لم يمتنع عن زيارتي في كل أجازة حصل عليها، كان يأتي لزيارتي دومًا وكان في حزن وكرب منذ أن بلغه رفض والدي.

ظل والدي متمسكًا برفضه ليحيى حتى قامت الثورة، وعلمت بعد أن تم اعتقال والدي، أن والد يحيى هو الذي تعهد بإخراجه من المعتقل. جاء إلينا يحيى في صباح ذلك اليوم، وأخبرني بمعزل أنه قابل والدي وأنه سيخرج في تلك الليلة. شعرتُ بالطمأنينة لما رأيته، وأيقنتُ أني أشعر بالأمان جواره، فهدأ بالي واطمأنت نفسي. ربت على كتفي وأخبرني أن والدي طلب منا الخروج للهروب من سوريا برفقة أبي عمار. شعرتُ بالخوف يتملكني في ذلك اليوم، فوضع يحيى يديه الحانيتين على وجنتاي، ومسح دموعي بطرف إبهامه، وقال لي:

–سأكون بجوارك حتى تصلي إلى لبنان.. ووالدك سيلحق بنا.. هذا وعد.

ابتسمتُ له رغم الدموع التي كانت في عيناي. أبو عمار في ذلك اليوم قال أن طلب والدي ليس غريبًا، خاصة أن المال الذي قد تم دفعه ربما يضيع هباءً لو لم نخرج في الوقت المتفق عليه.

فوافقت أمي أن تخرج على مضض، وبالفعل خرجنا في عصر ذلك اليوم، وخرج برفقتنا يحيى وأبو عمار.

كان هناك مرافقًا يُحسب على النظام سيرافقنا في المناطق التابعة لسلطة بشار في ذلك الوقت، ثم يُستبدل هذا المرافق بمرافق غيره يُحسب على الثوار في المناطق المحررة من قبضة نظام الأسد. يحيى كان يعلم ذلك، لكنه أصر على أن يرافقنا إلى حدود لبنان. قال أن وجوده سيسهل علينا أمورًا كثيرًا في رحلتنا.

خرجنا من المنزل عندما حل المساء، حتى نستطيع التخفي من أعين قوات النظام التي لم يكن لمعظمهم علم أو نصيب من المال الذي كان يقتصر توزيعه على أصحاب الكمائن والدوريات. وخرجنا عند نزول الليل على الرغم من أن يحيى أخبرنا أننا لو خرجنا تحت ضوء الشمس فلن يعترضنا أحد، إلا أن أبو عمار أخبرنا أننا يجب أن نسير وفق الخطة التي ألزمه بها المُهرب.

وصلنا إلى منزل المهُرب قبل منتصف الليل، ثم خرجنا منه بعدما أتى رجل معنا ليرافقنا، سأله أبو عمار كيف تعرفون أن الطريق آمنًا، فأخبره الرجل أن هناك شخصًا آخر يسبقهم يمهد لهم الطريق.

كان ظلام الليل يكتنف الكون ونحن نسير في طريقنا الوعر المحاط بالتلال، بعض النجوم كانت تنير السماء، لكنها لم تكن كفيلة بأن تنير لنا الطريق الذي نسير فيه، حذرنا المرافق من إحداث أي صوت ونحن نسير في هذا الطريق حيث أخبرنا أن هناك جنودًا تابعة للنظام السوري تقف فوق تلك التلال، وأنهم سوف يقتولننا إذا أحدثنا أقل الأصوات.

ظللنا نسير بعضًا من الوقت في ذلك الطريق الوعر إلى أن طلبنا من المرافق أن نتوقف بعض الشيء لنستريح، لكنه رفض ذلك، وأصر على رفضه عندما كررنا عليه الطلب. طلب منه يحيى مجددًا أن نتوقف عندما رأى أن أمي يبدو عليها الإعياء، فرفض الرجل مرة أخرى. تشاجر معه يحيى حتى علا صوتهما وضجيجهما.

عندما وافق الرجل على الاستراحة، سمعنا طلقات الرصاص تتساقط فوق رؤوسنا، فهرعنا جميعًا نختبئ خلف الصخور لتفادي هذه الطلقات، وظننتُ وقتها أن أمي بجواري، لكني لم أجدها بعدما هدأت طلقات الرصاص، فرحتُ أبحث عنها في كل مكان حولي حتى اصطدمت قدماي بها، فوجدتها مطروحة على الأرض، وشعرتُ بالدم يسيل من جسدها، فصرختُ

صرخة شديدة، وظللتُ أبكي بجوارها دون صوت حتى ظننتُ أن أحبالي الصوتية قد انقطعت.

جاء إلي أبو عمار مُسرعًا، بعد أن عرف مكاني حيث سمع صرختي، نظر إلى الجرح الذي أصاب أمي أعلى صدرها، ووضع يده على رقبتها ثم نطق الشهادتين، عندها أخبرته أنه كاذب، وظللت أبكي على أمي التي كانت رأسها بين أحضاني، حركتها كثيرًا ظنًا مني أنها ستكون على قيد الحياة إلا أنها لم تحرك ساكنًا.

طلب مني أبو عمار النهوض لنكمل سيرنا قبل أن ينزل إلينا الجنود من التلال، لكني لم أستمع إلى ما يقوله ولم أجد في نفسي أي استجابة إلى قوله هذا. سمعت بعد ذلك المرافق يخبر أبا عمار أنه وجد يحيى مقتولًا في نفس المكان الذي تشاجر فيه مع هذا المرافق.

لا أعلم هل مر وقت طويل أم لا عندما كنت أجلس واضعة أمي بين أحضاني، لكني وجدت مصباحًا موجهًا إلي ووجدت رجلًا يحملني على النهوض بغلظة شديدة، لما رأيتُ ملابسهم علمتُ أنهم جنود النظام قد نزلوا من أعلى التلة، وقاموا بالقبض علينا.

انتهت الفتاة عند هذا الحد في ذلك اليوم، على الرغم من شغفي ورغبتي المتزايدة في معرفة ما حدث بعد هذا، لكنها أصرت على التوقف حتى أستطيع النوم فترة كافية قبل الذهاب إلى الكلية.

ذهبتُ إلى غرفتي بعد دخولها. نظرت إلى الساعة المعلقة على الحائط، كانت الثانية إلا الربع، فذهبتُ إلى الفراش، وفكرت في مصيرها. تخيلتُ مجددًا لو كنت مكانها فاستفظعت كل ما مرت به وأشفقت عليها، لكن هذا لا يعني أني سأشفق عليها إذا انتحرت، فأعظم المصائب تهون مع مرور الأيام، قلت لها ذات يوم إن الله قد غرس فينا بذرة الحياة، ومهما تعرضنا من مصائب وأهوال فإن تلك البذرة لن تفنى في قلوبنا أبدًا.

****

ذهب خلسة إلى لبنان؛ رغبة منه في الاطمئنان عليها، دعا الله وتمنى من أعماق قلبه أن تكون بخير. كان يدرك أنها قد تكون ماتت، لكن حبه أعماه، فظن أنه سيجدها على قيد الحياة.

قصد العنوان الذي ظل يحفظه في ذهنه طيلة تلك الشهور، قلبه كان يخفق بشدة، كلما اقترب من عنوان المنزل، ظن أن حبيبته على قيد الحياة، وأنها ستمكث في لبنان ستة أشهر.

-ذهبوا إلى مصر.

قال الرجل ذلك، فسأله الفتى:

-أتعرف عنوانًا لهم؟

أومأ الرجل في أسف. في ذلك اليوم شعر أن حبيبته ضاعت إلى الأبد، وتساءل في ألم، كيف يبحث عنها في مصر بلا عنوان.

عاد إلى سوريا، ما الحل؟ لماذا ذهبت إلى مصر؟ ظل يفكر كثيرًا في حل للبحث عنها، لكنه فشل، اتصل ببعض أصدقائه السوريين الذين يدرسون في مصر، ولم يفيدوه.

ذهب إلى الحي الذي كانت تسكن فيه؛ ليسأل عنها، لعل أحدًا يعلم شيئًا هناك. لما وطأت قدمه الحي، تذكر أيام طفولته، لكنه تغير كثيرًا الآن، المباني خربة والمدارس مُهدمة، والشوارع فارغة كأنها مدينة الموت.

نظر إلى منزلها، كان مهدمًا، لم يجد شيئًا مفيدًا، لكنه تذكر أن حبيبته أخبرته ذات يوم أن صديقتها ستسافر إلى مصر، ربما تكون حبيبته ذهبت إلى صديقتها هناك، أو ربما تعلم شيئًا عنها على الأقل.

علم أن الوصول إلى عنوان صديقتها في مصر سيكون يسيرًا، فأقاربها يسكنون في دمشق، وربما يعلمون شيئًا عنها؛ لأن صديقتها هذه ذهبت إلى عمها هناك.

الفصل الثالث عشر

هاتفني صديقي عامر في أحد الأيام، وأخبرني أن إسراء قد تم خطبتها، وهذا الخبر لم يجعلني أشعر بالندم على ما اتخذته حيالها بقدر ما أخذ مني بعض الاهتمام، فامتلكني الفضول لأعلم من هو ذلك الشاب الذي وافقت عليه. وعامر لم يكن لديه معلومة أخرى، فقررت أن أبحث عنها على موقع التواصل الاجتماعي لأعلم من هو ذلك الشخص.

لم يطل بحثي عنها كثيرًا، فسرعان ما وجدت حسابها دون تعب أو مشقة. وبحثتُ في صفحتها، ولم أجد فيها أي شيء مهم سوى مباركة أو تهنئة على الخطبة من صديقاتها. ولما أمعنت في البحث وجدت أمرًا غريبًا لم تصدقه عيناي، ولم يستوعبه عقلي محدود الخيال. فكانت هناك صورة تجمع إسراء وفتاة تبدو أنها صديقتها، كانت تلك الفتاة تشبه رنا، لما أمعنتُ النظر، أيقنتُ أنها هي. في ذلك الوقت فقط، تذكرتُ متى وأين رأيت تلك الفتاة، وأدركتُ أني رأيتها مع إسراء عندما كنت في جامعة أسيوط. كانت هي تلك الفتاة التي صاحبت إسراء أثناء الخروج من قاعة المحاضرات.

وذهبتُ إلى دينا من شدة دهشتي وإنفعالي، لأريها تلك الصدفة الغريبة على الرغم من إنشغالها بالمذاكرة استعدادًا للامتحانات التي شارفت على البدء، فتفاجئت بقدر ما سعدت عندما رأت تلك الصورة، وأخبرتني أن لمى ستسعد كثيرًا عندما

تعلم أن مكان صديقتها لم يصبح مجهولًا، لكني أخبرتها ألا تفصح عن ذلك الأمر لأني أريد مفاجأتها بمجيء صديقتها إلى هنا.

سألتني دينا:

-وكيف ستفعل ذلك؟

-سأحاول أن أتحدث إليها عبر موقع التواصل الاجتماعي.

-لن تصدقك.

-سأرسل لها صورتها التي تجمعها مع لمى، وهذا خير دليل على صدق ما أقول.

-وبعد ذلك؟

-بعد ذلك سأطلب منها أن تجيء إلى هنا برفقة عائلتها أو والدها.

-حسنًا حاول ذلك، لكنك لو فشلت أخبر لمى كي يتواصلا ويتفقان كيف يتقابلان.

كان من البدهي أن أخبر لمى لو لم تصدق رنا ما أقول، لكنها صدقت قولي في شيء من التحفظ، كأنها كانت تتعلق بقشة. أخبرتها أن والدي كان صديق والد لمى، وأنها تسكن بجوارنا الآن. طلبت مني رقم هاتف صديقتها، فأخبرتها أنها لا تملك هاتفًا وأني أريد أن أفاجئها بمجيئها، فترددت قليلًا لكني بعد أن أرسلت إليها الصورة التي تجمعها بلمى وافقت على

المجيء، فطلبت مني العنوان ورقم هاتفي، وأخبرتني أنها ستجيء ووالدها خلال يومين.

في ذلك اليوم، قابلت لمى، كان واضحًا عليَّ بعض علامات البهجة والسرور، لاحظتْ الفتاة ذلك، لكنها لم تكن تتوقع أني كنت مسرورًا لأني وجدت صديقتها رنا. ضيقت الفتاة عينيها متعجبة وسألت:

-أهناك شيء ما؟

-لا، لا شيء.

استدركت قائلًا:

- لتستأنفي قصتك... مر وقت طويل على ذلك.

قلتُ لها:

-علاقة العلويين بالسنة ليست علاقة سيئة كما يتوقع الناس هنا.

-لا توجد أي مشاكل مع العلويين ...العلويون كانوا يعيشون بيننا وكانوا يتزوجون منا ...مشكلتنا كانت مع النظام وليست معهم ...لكن النظام استغل اختلاف المذاهب حتى لا يخسر السلطة... ونجح في ذلك.

(٥)

لم يمر وقت طويل على مكوثنا بقبضة هؤلاء الجنود، تركونا إلى طريقنا، بعد أن أخبرهم أبو عمار أنهم ليسوا طرفًا في النزاع، وأن الدليل على ذلك أن هناك شخصًا علويًا كان بينهم، لما رأى القائد هوية يحيى حاول إسعافه لكنه كان قد فات الآوان، فأخذ الهوية ثم أطلق سراحنا.

كنت حتى ذلك الوقت ذاهلة ساهمة حزينة على أمي التي فقدتها في هذا الطريق المجهول وعلى يحيى الذي قُتل بسبب خروجه معنا. لكن أبو عمار حملني وحثني على النهوض والسير مجددًا حيث أخبرني أن والدي سيلحق بنا بعد وصولنا بساعات، فعدت إلى السير مرة أخرى، لكني سرت هذه المرة دون أمي ودون يحيى.

بدأنا نسير في طريق أكثر وعورة، إلى أن اتجهنا صاعدين الجبل، وعلى الرغم أني كنت أحمل حقيبة صغيرة بها بعض الملابس. إلا أنه لم يمر نصف ساعة على انطلاقنا حتى شعرت وكذلك أبو عمار بالإعياء والتعب، لكننا تحاملنا على أنفسنا وأكملنا السير بعد أن رفض المرافق طلبنا بالإستراحة.

كان هذا الطريق أشبه بطريق موت ليس له نهاية، ظللنا نسير لمدة ثلاث ساعات كنا نختلس خلالها بعض الراحة، ونعود سريعًا بسبب إلحاح المرافق الذي كان يرفض تلك الإستراحات بحجج واهية.

كان الطريق شاقًا لا نهاية له، وكان المستقبل قاتمًا لا قيمة له، في كل مرة كنت أخطو فيها خطوة نحو لبنان، كنت أرى أن ما أفعله ما هو إلا عبث لا طائل منه، كيف أعيش دون أمي ودون أبي، كيف أعيش دون يحيى. إنني وإن كنت أحيا من قبل فكنتُ أحيا لمجرد أن هؤلاء الناس حولي، يحبونني ويهتمون بي، أما وأني قد فقدتُ هؤلاء الناس فكيف لي أن أعيش، قل لي بربك كيف لي أن أعيش دون هؤلاء الناس. الحياة يا مهاب ما استحقت أي ثمن بعد أن فقدتُ أسرتي.

وهكذا، أصبحت حياتي رخيصة فبعتها؛ لأشتري الموت. هكذا قررت الانتحار عندما كنت أصعد الجبل الذي يفصل بين سوريا ولبنان. كان هذا الجبل في بداية الأمر بمثابة الخط الفاصل بين الحياة والموت، بين البعث والعدم، لكنه أصبح بعد أن فقدت والديَ بمثابة الخط بين موت وموت. في سوريا موت حقيقي، وفي لبنان هناك موت بطيء ينتظرني عندما تخيلتُ أن

حياةً طبيعية ستكون هناك، وأني سأجد إناسًا يمرحون وأطفالًا يلعبون فيضحكون. كانت الحياة قد ماتت في داخلي؛ لذلك كانت مجرد رؤيتي للحياة مجددًا هي موت بطيء سيقودني للإنتحار لا محالة.

لم تستغرق تلك الفكرة كثيرًا في ذهني، فبعد أن وصلتُ إلى لبنان برفقة أبى عمار، علمتُ من المرافق ومن أبي عمار، أن والدي خرج من السجن، وأنه يتهيأ للهروب في تلك اللحظة، قال لي أبو عمار (سيكون والدكِ هنا بعد بضع ساعات)، عندما فكرت في ذلك وجدت أنه قد يكون هذا سببًا كافيًا لأبقى على قيد الحياة، من أجل والدي.

هيأ لنا أحد أصدقاء والدي في لبنان مسكنًا لنعيش فيه، بعد أن وكل أبي أبا عمار للهروب بنا إلى لبنان، دله أبي على صديقه هذا، فأرسل مع يحيى كل التفاصيل التي تخص هذا الصديق والمكان الذي سنقابله فيه.

لما ذهبنا إلى هذا المكان، وجدنا الرجل يتنظرنا كما أخبر والدي، كان رجلًا في أواخر الخمسينات، تُظهر ملامحه أنه رجل طيب النفس، وكانت عيناه هادئة كأنه ينعم بصفاء وسلام داخلي في أعماقه، كان أول شعوري تجاه ذلك الرجل أن أُنكر عليه هذا السلام الذي ينعم به.

اصطحبنا هذا الرجل في ود وترحاب إلى المسكن الذي هيأه لنا. غاب عنا، ثم عاد إلينا حاملًا بين يديه بعض الطعام، أصبتُ منه شيئًا، ثم جلست مع أبي عمار أنتظر قدوم والدي في شيء من الخوف والقلق.

أشرقتْ شمس اليوم الأول لي في لبنان دون أن يأتي والدي، فإزداد القلق في نفسي عندما أدركت أنه قد يقع مرة أخرى في قبضة جنود النظام كما حدث معنا، لكن تخوفي هذا لم يكن صحيحًا، فبينما كنت أجلس في غرفتي، غلبني النعاس، ورُحت في نوم خفيف، لم يوقظني منه إلا يد حانية تربت على شعري، نظرت إليه فوجدته أبي، عندما رأيته شعرت بإنحلال أعصابي وإنهيارها، وإرتميت بين أحضانه وتساقطت دموعي على كتفيه. عاد إلي بعض ما سُلب مني، وأصبحت بجوار والدي، لكن وجوده هذا لم يمنع علي ذكرى أمي التي كنت أراها كل يوم في منامي، وكانت أحداث مقتلها تتكرر في أحلامي كلما خلدتُ إلى النوم.

الأيام في لبنان كانت تشبه بعضها بعضًا، فبعد أن عاد أبو عمار إلى سوريا في اليوم التالي، خرج والدي بصحبة صديقه من أجل العمل وتوفير ما يلزم من طعام وشراب، بدلًا من استنزاف بعض المدخرات التي كان يحتفظ بها والدي لمواجهة ما قد يصيبنا من مصائب في هذه الغربة.

حديث لمى كان يخلو من التطرق إلى أخيها مروان بأي حال من الأحوال، كان كل حديثها مقتصرًا عليها أو على والدها ووالدتها، وكنت في حيرة من أمري عندما تنبهت إلى ذلك، وتلك الحيرة لم تجعلني أتوصل إلى أن مروان لم يكن أخًا للمى. كانت فطنتي المتواضعة هي التي جعلتني أرى أن هناك تشابهًا بين لمى وزوجة الرجل السوري، لمجرد أني ظننت أنه من الطبيعي أن تكون تلك الفتاة ابنة تلك المرأة، وكانت فطنتي المتواضعة أيضًا هي التي جعلتني أظن أن مروان هو الأخ البيولوجي للمى.

ويوم أن حدثتها في ذلك، خبرتني أن مروان ليس أخًا لها من أبيها، لكنها تنظر إليه كأخ حقيقي، فقد أصاب والدتها العقم بعد أن حملت بها، فكانت هي الابنة الوحيدة، وكانت تتمنى أن يكون لها أخًا يكون داعمًا وسندًا، لكنها إرادة الله فوق كل شيء.

قالت:

(٦)

كنت أجلس وحيدة في المسكن، وكانت ذكرياتي وأحزاني تتكالب على قلبي مستغلة وحدتي فتزيد آلامي وأحزاني على فراق والدتي. وكنت أستعذب تلك الوحدة فكانت محببة إلى نفسي، ومع مرور الأيام أخبرني والدي أن امرأة سورية وابنها يسكنون بجوارنا. كان يظن أن وجود سكان من أبناء الوطن بجوارنا سوف يضع حدًا لوحدتي إلا أن هذا لم يكن ذا فائدة، فمرت عدة أيام على وجود هؤلاء الناس بجوارنا دون تعارف بينهم أو حديث.

لم يمر وقت طويل على إنعزالي بعيدًا عن تلك الأسرة، فسرعان ما تعرف عليهم والدي، ثم تعارفنا بعد ذلك مع مرور الوقت. كانت هذه الأسرة مكونة من فردين، هما مروان ووالدته. كانوا قد هربوا إلى لبنان مثلنا، رب أسرتهم تم قتله منذ بداية الأحداث في سوريا، فظلت تلك المرأة وابنها في سوريا ترتحل من قرية إلى أخرى ومن مدينة إلى مدينة، حتى ضاقت بها الأرض في سوريا فقررت الهروب إلى لبنان.

مكثنا في لبنان بضع وستين يومًا، توطدت خلالها علاقتنا بتلك الأسرة، فبعد أن زارتنا أم مروان أكثر من مرة وطلبت مني أن أزورها، قمت بزيارتها فتكررت الزيارات وتبادلت بيننا وأصبحت علاقتنا علاقة قوية وطيدة.

وعلى الرغم من أننا وتلك الأسرة قد واجهنا نفس الظروف في

سوريا إلا أن وجهات النظر بيننا اختلفت فيما يخص العودة إلى هناك، كنت أتمنى العودة إلى سوريا؛ لأنها كانت الأرض التي ولدت فيها، ولا أتمنى فراقها، في حين أن أم مروان كانت لا ترغب البتة في الرجوع إلى هناك بسبب الذكريات المؤلمة التي ترسخت في ذهنها. كانت تقول عن أيامها هناك:

-الله لا يعيدها.

في أحد الأيام بينما كان والدي يجلس مع صديقه اللبناني، سمعت صديقه هذا يقترح عليه الزواج من تلك المرأة جارتنا، فرفض والدي، كان باديًا من نبرة صوته أنه متردد في ذلك. إلا أنه لم يمر ثلاثة أسابيع حتى تزوج والدي من أم مروان.

بعد أن مر ثلاثة أشهر على بقائنا في لبنان، وجدتُ والدي في حالٍ لا يختلف عن حالي كثيرًا، كان لا يشعر بالراحة في عمله الجديد، كما أني كنت أرى في عينيه أنه لا يطيق العيش هناك، وعندما سألته عن السبب أخبرني أن الأوضاع هناك ليست مثالية، كانت هناك حالة احتقان تسود البلاد، إضافة إلى المشاكل والانقسامات الطائفية التي كانت سائدة خاصة مع تزايد وجود السوريين في تلك البلد، فكانت بعض الطوائف في

لبنان تنظر إلى السنة اللاجئين على أنهم السبب في تدمير سوريا.

فكر والدي في السفر إلى تركيا هذه المرة عبر البحر المتوسط، قام بدفع مبلغ كبير إلى أحد المهربين من أجل تهريبنا إلى هناك، لكنَّ هذا المهرب اختفى بعد أن أخذ نصيبًا كبيرًا من المال. عندها قرر والدي السفر إلى القاهرة. قال أن الأجواء في مصر لن تكون متوترة كما في لبنان، خاصة أن الحكومة المصرية كانت تعامل اللاجئين كالمصريين فيما يتعلق بالتعليم والصحة.

في هذه المرة حاول والدي السفر إلى مصر بطريقة شرعية، سمعته يقول أن مصر هي الدولة الوحيدة التي لم تنشر الخيام للاجئين السوريين، بل استقبلتهم في أنحائها كأنهم مواطنون مصريون. قال لي كأنه يبشرني بمعيشة أفضل هنا في مصر (كنا دولة واحدة ذات يوم).

وهكذا أنهى والدي إجراءات السفر إلى مصر، لكننا عندما جئنا إلى هنا لم نكن نملك المال الكافي لتأجير مسكن يؤينا في القاهرة، فجاء بنا إلى هنا بعدما علم أن أسعار المسكن في مدينة السادس من أكتوبر ليست باهظة كما في القاهرة، كما

علم أن كثيرون من أهل سوريا يعيشون هنا. فأتى إلى هنا وقابل والدك.

تلك هي حكاية لمى، عند هذا الحد كفت عن الحديث، وعند هذا الحد انتهت معاناتها في سوريا، وبعد هذا الحد أصبحت في مصر على أمل أن تعيش حياة آمنة تجعلها تلتفت إلى مستقبلها ودنياها مرة أخرى. قالت الفتاة:

-هذه هي قصتي.

سألتها:

-حاولتِ الانتحار بسبب فقدانك لأمك؟

-فقدان أمي كان سببًا في تفكيري في الانتحار.

-وما هي الأسباب الأخرى؟

تملصت الفتاة من الإجابة على هذا السؤال، بدأت تتحدث في أمور أخرى، قاطعتها سائلًا:

-ما هي الأسباب الأخرى؟

-لا توجد أسباب أخرى.

-أشعر أنك تخفين شيئًا.

-لا، لكن الأوضاع والظروف جميعها كانت تدفعني للانتحار، لكنني لن أعود لذلك مرة أخرى.

كان هذا الوعد جديرًا وقمينًا بأن يجعلني أكف عن الضغط عليها لتقول لي إن كانت تخفي علي سرًا أم لا. كان كل ما يهمني أنها لن تعود إلى الانتحار مرة أخرى، ولو أن هناك سرًا تخفيه عني، فمن السهل علي أن أعلمه منها مع مرور الوقت بجوارها.

مرت بضعة أيام تلقيت بعدها مكالمة من والد رنا، أخبرني أنه يرغب في التحدث إلى أبي مروان، تفاجأت بهذا الطلب، لكني سرعان ما تعاملت مع هذا الأمر وقررت أن أستجيب لطلبه، فذهبت إلى أبى مروان وقصصت عليه ما حدث ثم أخبرته أن دينا تريد أن تفاجئ لمى بهذا اللقاء، ولا تريد منه أن يذيع هذا السر عليها.

أبو لمى كان سعيدًا لما علم أننا توصلنا إلى رنا وأنها ستزورهم، ووافق في غير تحفظ على طلبي أو طلب أختي كما زعمتُ له. الرجل أخبر والد لمى أنه سيزورهم خلال الأيام القادمة، بعد أن تأكد أني لم أكن أكذبه القول في شيء مما قلت.

كنت شواقًا إلى هذا اللقاء، وكنت أتمنى الخير لها، راغبًا في إسعادها حتى تنسى ما مرت به من أحداث، وكانت لا تستحق إلا طيبًا، كانت فتاة طيبة النفس، نقية السريرة، لا تضمر لأحد كرهًا ولا غلًا، كانت أشبه بطفلة في نقاء قلبها، وأشبه براشدة في رزانة عقلها على الرغم من أني ظننت يومًا ما أنها غريبة الأطوار.

وكأن رنا لم تتحمل أن تبقى يومًا واحدًا دون الالتقاء بأقرب صديقاتها، فجاءت في ظهيرة اليوم التالي. هاتفني والدها حينما كنت في المنزل فأخبرني أنه سيدخل المدينة خلال نصف ساعة، اضطربت قليلًا عندما أدركت أن لمى ستلتقي بصديقتها، فكرت كيف ستقابل هذا الموقف؟ وكيف ستتعامل معه؟ وما هو شعورها حينما تراها؟ أهو لقاء سيجعلها تبكي حزنًا على ما مضى؟ أم أنها ستنسى ما فات من فراق، وستفرح بهذا اللقاء الذي كم تمنت أن يحدث كلما ذكرتها لي. كنت شغوفًا مترقبًا لما سيحدث كما كنت قلقًا أيضًا بلا سبب.

اتفقتُ مع دينا من قبل أنها ستطلب من لمى أن تزورها في شقتنا في الوقت الذي ستأتي فيه رنا، فما كنت أتخيل أن يتم هذا اللقاء دون أن أراه وأراقبه، وما كنت أتخيل أن يتم أيضًا دون أن أراها وأراقبها.

مرت الدقائق متباطئة كأنها تأبى أن يتم هذا اللقاء، خلال تلك الدقائق أتت لمى مستجيبة لطلب أختي، ألقيتُ عليها التحية، ودار بيني وبينها حوار قصير من كان يسمعه كان يدرك في يسر أنه حديث قد اعتاد كلٌ منا عليه، واستراح كل منا إليه. بفطنة غابت أختي عنا بعض الوقت ثم عادت إلينا بعد أن هدأت أصواتنا، قادت لمى إلى غرفتها، بينما جلستُ في الصالة متلهفًا ومترقبًا قدوم رنا ووالدها.

نصف ساعة أخرى مرت غير التي وعد بها أبو رنا، فتلاعبت الظنون بعقلي، وظننت أن الرجل أخطأ الطريق فضل وتاه بين أحياء المدينة، اتصلت به، أخبرني أنه ضل الطريق فعلًا، وأنه الآن في الحي الثالث، فطلبت منه المكوث إلى أن آتي إليه وأصطحبه إلى المنزل.

وصلت إلى الحي الثالث وإلى المكان الذي وصفه لي الرجل، فوجدت شخصًا يقف أمام سيارة أجرة، نظرت إليه دون كلام كأني أنتظر منه أن يبدأ الكلام إن كان هو أبو رنا، وبدأ الكلام بعدما نظر إلي مليًا، وقال بصوت عالٍ حتى أستطيع سماعه:

-أأنت مُهاب؟

أجبتُ بينما أصافحه:

-نعمّ.

-مرحبًا بك.. لقد ضللنا الطريق فلما سألنا ضللنا أكثر.

-لا بأس.

اتجه الرجل، استقل السيارة، وطلب مني أن أجلس بجوار السائق لأهديه إلى الطريق، فاستقليت السيارة ثم أشرت للسائق بيدي وقلت له:

-اسلك هذا الاتجاه.

نظرتُ إلى المرآة التي أمام السائق، كانت رنا تجلس في تأهب، كنت رأيتها من قبل مع إسراء، وما كنت أتخيل أنها صديقة لمى حتى لو أخبرتني إسراء أن جنسية تلك الفتاة سورية. كان استيعاب هذا الأمر عسيرًا علي، كما كانت الأمور بعد ذلك.

بينما كنت أنظر إليها من خلال المرآة تلقيت مكالمة من أختي دينا، أخبرتني أن لمى ترغب في العودة إلى منزلها، حذرتها من ذلك وأخبرتها أننا سنكون في المنزل خلال دقائق.

عندما كنت أمام باب شقتنا خرج أبو مروان من شقته لما علم بمجيئنا، فعانق أبا رنا وقاده إلى شقته، وظلت رنا ورائي بينما كنت أنقر على باب الشقة حتى تفتح لي دينا. لما فتحت دينا الباب، دخلتُ فتبعتني الفتاة، ثم قادتها دينا إلى الغرفة التي تجلس بها لمى.

كانت لمى تجلس على الكرسي في تململ، لما رفعت رأسها وجدت رنا عند باب الغرفة. نظرت إلى صديقتها ثم نظرت إلينا، وقامت إليها تحتضنها. تعانقا الفتاتان عناقًا شديدًا، وبكت لمى حتى سمعت نشيجها، لكنه كان بكاء الفرح هذه المرة.
نظرتُ إلى عينيها الغائمتين التي كانت توشي بمشاعر شتى، رأيت شوقًا ولهفة نحو صديقتها، وخوفًا من أن يفرق الزمان بينهما ثانية، وعدم تصديق، وامتنان، ورجاء كأنها كانت ترجو من الله ألا يباعد بينها وبين صديقتها.

خرجتُ مع أختي خارج الغرفة، حتى يطيب للفتاتين اللقاء ويجلسان في غير تكلف. بعد ذلك ببضع دقائق خرجت لمى، مصطحبة صديقتها، وطلبت من دينا أن تأتي معها إلى شقتها، لكن دينا اعتذرت متعللة بأنها ترغب في الاستذكار. في ذلك الوقت كنتُ في غرفتي، لما نظرتُ إليها رأيتُ في عينيها سرورًا واطمئنانًا ما تعودت أن أراه فيهما من قبل.

غابت عني ثلاثة أيام، لم تخرج خلالها إلى الشرفة إلا مرة واحدة، وكانت حينها بصحبة صديقتها، لما رأيتهما ألقيتُ عليهما التحية ثم تركت الشرفة عائدًا لإكمال مذاكرتي استعدادًا لامتحانات آخر العام.

كان عزائي الوحيد على فراقها، هو يقيني بأنها في أسعد أوقاتها منذ أن جاءت إلى القاهرة، لكن هذا العزاء لم يمنع أن

تظل في ذهني وتفكيري دائمًا. كنت كلما فكرت في شيء ما، ذكرتها في نفسي، فإن كانت فكرة محزنة ذكرت ما مرت به من مصائب، وإن كانت مُبهجة ذكرتُ ابتسامتها وعينيها البنيتين وتمنيت أن أشاركها تلك الذكرى المبهجة.

لم يَطُل عليَّ غيابها في ميقات الأيام، وإن كنت أظن أنها تغيب عني زمنًا بعيدًا، فرنا غادرت المدينة في صباح اليوم الرابع، وجاءت لمى إلى دينا في نفس هذا اليوم. فتحتُ لها الباب، فدخلتْ في حياء وهدوء، كانت مبتهجة كأنها لم تعرف سبيل الحزن يومًا، ابتسمتُ عندما رأيتها سعيدة، قلت لها مداعبًا:

-من لقي أحبابه.. نسي أصحابه.

قالت الفتاة وقد احمر وجهها خجلًا:

-أنا لا أنسى أحدًا! لقد أخبرتني دينا ورنا أنك من دبرت هذا اللقاء. أهذا صحيح؟

-نعم.

-كلمات الشكر لن تمنحك ما تستحق يا مُهاب..

قاطعتها قائلًا:

-لا تقولي ذلك.. أنا نلت غايتي وجزائي عندما رأيت البهجة والسرور في عينيك.

نظرتْ الفتاة إلى عيناي وابتسمت، لما تلاقت العينان أطرقت النظر إلى الأرض. حقًا يا لمى، فقد نلتُ جزائي موفورًا عندما رأيتك سعيدة، عندما رأيتُ البهجة في عينيك، والبسمة على مُحياك الكريم.

كم تمنيتُ أن أصطحبها معي في جولة إلى القاهرة ومعالمها، اقترب خلالها من عينيها البنيتين، وألاحظ مدى قصرها أمامي، واستمع إلى أنفاسها المترددة في صدرها، وأملأ رئتاي وقلبي بعطرها المُسْكر، لكني كثيرًا ما أغلقت على قلبي هذه الأمنية المُلحة، فلا أسرتنا ولا أسرتها المحافظتين يقبلان بأمر كهذا.

وعندما أخبرتُ دينا بأمنيتي، لمعت عيناها وشردت لحظات، لكنها لم تقترح شيئًا ذي بال. وبعد بضعة أيام اتصل علي والدي عندما كنتُ في الكلية، أخبرني أن دينا ولمى ستأتيان إلى القاهرة لشراء بعض الملابس، قال لي:

-كن معهن، وعُد معهن إذا أقبل الليل.

تراقص قلبي، ونسيتُ تعب وإجهاد يوم طويل قضيته في الكلية، وظننتُ أن الظروف تطاوعني، وذهبتُ إلى المترو لأنتظر وصولهن.

رأيتها مقبلة عليَّ، في حجابها وزيها السوري، وعلى وجهها ابتسامة قلقة، ألقيتُ عليهن التحية، واتجهت بهن إلى المكان الذي يريدهن. وعلمتُ من ابتسامة أختي أنها من دبرت هذا اللقاء، ولم تكتفي بذلك بل إنها أتت بصديقة لها، حتى أستطيع الانفراد بلمى من وقت لآخر.

قلتُ لها:

-أرى القلق في عينيك.

كنتُ أقف بجوارها وهي تنظر إلى الملابس المعروضة، نظرت إلي في اضطراب، وقالت:

-أشعر أني غريبة فقط.

-يجب ألا تشعري بالغربة وأنا معك.

احمر وجهها خجلًا كعادتها، ابتسمتْ وأطرقت رأسها، لما رأيتُ أختي وصديقتها تبتعدان، تملكت مني فكرة مجنونة، أمسكتُ يدها وطلبتُ منها أن تأتي معي، ترددت في أول الأمر، لكني لما شددت على يديها برفق، صاحبتني في صمت.

جريتُ وجرت معي حتى ابتعدنا عن أعين أختي، في تلك اللحظة شعرتُ أن قيمة الحياة تتمثل في وجود الحب، وأن الإنسان التعيس هو الذي لم يذق حلاوة الحب طيلة حياته.

خرجنا إلى الطريق، وقالت في تردد:

-ستقلق دينا علينا.

-لا تقلقي، سأتصل بها لأخبرها.

-إلى أين سنذهب؟

-ما تشائين.

سألتني عن مدى قربنا لنهر النيل، فأخبرتها أنه قريب من هنا. فاتجهنا إلى هناك، وركبنا مركبًا، كانت الشمس توشك على الغروب، وكانت مياه النيل متلونة باللون الذهبي لأشعة الشمس الغاربة.

قلتُ لها:

-منظر رائع!

أومأت برأسها في صمتُ، فسألتها:

-ما لك؟

-لا استطيع استيعاب ما فعلناه.

-دعك من هذا الآن... أريد أن أبلغك شيئًا ما.

نظرت إلي في ود وقالت:

-ماذا؟

-لا أعلم.. أشتاق إليك دومًا، ودائمًا تشغلين بالي وتستحوذين على تفكيري، أشتاق إلى صوتك الحزين، وإلى ابتسامتك القلقة، وإلى عينيك العطوفتين، أشتاق إلى نظرتك المتأملة في، وإلى كلماتك وحكاياتك.. أتعلمين أني لم أقل لفتاة قبل أني أحبها؟!

قالت في إطراق:

-حتى إسراء؟

-حتى إسراء.

قلتُ لها:

-ألا تعلمين أني أحبك؟

أطرقت النظر ولم تتحدث، فكررتُ سؤالي، فقالت:

-كنت أخمن ذلك... لكن قد يكون ذلك إشفاقًا على ما حدث لي.

-ألقي ما حدث لك في هذا النيل، وفكري في هذه اللحظة... أنا أحبك... ماذا تشعرين تجاهي؟

صمتت، فقلتُ:

-أخبريني.

قالت:

-لم يمر وقتُ طويل على لقائي بك، لكني أشعر أنك قريب جدًا مني، وأشعر بالميل إليك.

وتلاقت عينانا، وتوقف الزمن، وتلونت الدنيا، وتبدى لي الحسن في كل ما حولي، واكتست الأشياء بالبهجة، وغنى قلبي في دقات منتظمة، وخُيل إلي أني فارقتُ الحياة، فذهبتُ إلى الجنة. وأدركتُ أن حياة الإنسان لا قيمة لها، إذا انتهت دون لحظة كهذه.

الفصل الرابع عشر

وسَمَتْ روحي وارتفعت كلما مرت اللحظات بجوارها، وتفاجأتُ بأن هذا السمو قد ارتفع بي إلى حد التفكير في الزواج منها. ما فكرتُ في فتاة هكذا من قبل، حتى إسراء ما فكرت أو نظرت إليها كزوجة مستقبلية لي. في ذلك الوقت شعرتُ أن نفسي وصلت إلى أعلى درجات السمو عندما وجدتُ فكرة الزواج منها تتملكني كل التملك، كنت أتخيل حياتي كرفيق أبدي لها لا يحول شيء بيننا سوى الفناء، فكان قلبي يحطم ضلوعي شوقًا منه إلى الوصول إلى تلك الرفقة وهذا الهدف الرفيع.

لم أمعن النظر في فكرة زواجي منها كثيرًا؛ فما لبثتُ منشغلًا بالامتحانات التي كانت قد أوشكت على البدء خاصة بعد أن تم تقديمها خوفًا من أن تتدهور أحوال البلاد أثناء المظاهرات المعارضة للسلطة التي كان مقررًا لها في أواخر شهر يونيو.

قبل الامتحانات بأيام، سألتني عما إذا كنت سأسافر إلى القرية بعد الامتحانات كما حدث في إجازة نصف العام أم لا. شعرت بالسرور عندما سألتني هذا السؤال، علمت وقتها أنها تهتم بأمري وتكترث بفراقي لها كما يكترثُ الأحبة بفراق بعضهما.

قلت لها:

-ما رأيك أنتِ؟

أجابت، وقد أطرقت بصرها:

-رأيي لا يهم.

-أنت تعلمين جيدًا أن رأيك يهمني.

-لا.. فالأمر يعود لك خاصة أن لك رفاقًا في أسيوط تتمنى لقاءهم.

-أنتِ على حق فهنا لي أحباب يشق علي فراقهم، كما أن لي هناك أحبابًا لا أرغب أن يطول فراقي بهم.

ابتسمتْ ابتسامة عريضة ظهرت خلالها أسنانها البيبضاء الناصعة، قالت دونما تنظر إلي كعادتها:

-أسمعُ أن المصريين يتقنون الكلام المعسول، وتأكدتُ من ذلك.. منذ لقائي بك.

ضحكتُ عندما قالت ذلك، قلت لها:

-لا.. إننا فقط طيبون... كلامنا يخرج من القلب دائمًا.

كان الشيء الذي يُزيد تلك الفتاة جمالًا وبهاءًا هو حياؤها، كانت شخصيتها كلها تتمحور في ضوئه. فقبل أن تنقل لي انطباعها عن المصريين عادت تنحتُ بإبهامها على الدرابزين الذي كانت تتكئ عليه ثم نظرت إليَّ بعينين لامعتين وابتلعت

ريقها ثم تحدثت. كأنها كانت تخجل أن تعبر لي عن أي انطباع أو أي إحساس يتملكها، لكن حبها لي وتعودها على الحديث معي جعلها تتحلى بالشجاعة وإن كان من حين لآخر.

فكرتُ في هذا الفراق الطويل، عندما دخلت الشرفة في ذلك اليوم. كيف سأتحمل تلك الشهور الثلاثة التي سأقضيها بعيدًا عنها. ياليتها تجيء لتسكن بجوارنا مثلما نسكن هنا بجوارها. نهنأ معًا بإجازة في الريف بحقوله المنبسطة الخضراء ونخيله وأشجاره السامقة الظليلة. الريف بلا شك سيخطف عقل تلك الفتاة التي أحبها. كما خطفت قلبي سيخطف الريف عقلها.

ها أنت تقول أنك تحبها، رغم أنك كنت تتشكك في وجود الحب من قبل وتعتقد في ندرته. نعم أشعر الآن أني ما أحببت إلاها، ما آلفتُ أو آنستُ إلا لمى، معها أشعر أني شخص أفضل من ذلك الشخص الذي كنت أعرفه. كأن روحي تتمازج وتتدامج مع روحها، فتسمو وترتفع. تتعاظم وتتعالى فترى الحياة جنةً وترى الدنيا نعيمًا.

يا عامر لو سألتني مجددًا ما هو الحب لأجبتُك بأنه أمر نسبي يختلف باختلاف الأزمنة، يتعدد بتعدد الأمكنة ويتغير بتغير الظروف، يتباين بتباين القلوب ويتنوع بتنوع الشخوص. الحب نسبي ياعامر. هكذا علمتني لمى.

سبحتُ في خيلاتي بعدما تركتُها أو بعدما تركتني. فكرت كثيرًا في هذا الفراق المحتوم. عندما قلت لها بينما كنتُ أستعد للرحيل بعد انتهاء الامتحانات، أنه يعز عليَّ فراقها، قالت لي كأنها تعزيني وتعزي نفسها (هكذا هي الحياة دومًا يا مُهاب تفرض علينا أمورًا لا نرغبها).

في الثامن والعشرين من شهر يونيه استقلينا القطار متجهين إلى قريتنا، كانت هذه المرة الأولى التي أذهب فيها إلى القرية وأنا غير راغب فيها، شعرت أن قلبي يلفظ كل الأماكن إلا ذلك المكان الذي أكون فيه بجوارها. لم أنم في القطر كعادتي بل ظللت أنظر من نافذة القطار في شرود.

اتفقنا على أن نتهاتف، هكذا قلت لنفسي معزيًا، لكن هذه التعزية لم تحدث أثرًا في نفسي. ماذا تريد أيها القلب المخضَّب بألوان العذاب. للحب مزية عند اللقاء، وعيوب عند الفراق. نعم.. فلكل شيء عيب، وآفة الحب الفراق.

سألتني والدتي حينما كانت تجلس بجواري:

-ما لك حزين بهذا الشكل؟

نظرتُ إليها وقلت لها:

-أبدًا... ما عُدت أحب التنقل من سكن إلى آخر؟

صمتت والدتي، كانت تعلم جيدًا سبب حزني، لكنها لا ترغب في أن تكاشفني بمعرفتها تلك، كما أني أعرف أنها تعلم كل شيء، لكن هناك أشياء لا يجب أن تُقال بسهولة، هذه هي الأمور التي تفرضها علينا الحياة أيضًا.

اليوم الأول مر متثاقلًا متباطئًا إلا من بعض الجلسات مع جدي أو أصدقائي التي كانت تخفف علي حزني ووحدتي من وقت إلى آخر. في نهاية ذلك اليوم جلستُ في غرفتي أنظر إلى الساعة منتظرًا الوقت الذي سأتحدث فيه معها. ما منعني من الاتصال إلا في ذلك الوقت، أنها كانت ترفض في البداية فكرة المحادثة في الهاتف. المحادثة في الهاتف فكرة مشبوهة. هكذا قالت.

لكنها اقتنعت في النهاية، فوافقتْ على أن أحادثها في وقت محدد من اليوم. كان لها انطباعات وأفكار غريبة كما أنها كانت تتمسك برأيها ولا تحيد عنه، وهذا أيضًا كان يُعجبني فيها.

اتصلت بها عندما حان الموعد، جاء صوتها بعيدًا، لما سمعته شعرتُ بحجم المسافة التي تفصل بيني وبينها. وشعرت أن هذا الصوت ما هو إلا محاكاة إلكترونية لصوتها العذب الحنون، ومحاكاة لمقابلتي لها، فتذكرت حينما قالت أن ذلك من فروض الحياة.

ومرت الأيام ومرت معها أحداث جِلال، داول الله فيها السلطان بين الناس، وتبدلت فيها المناصب والشخوص، وتحوَّل أصحاب المناصب فأصبحوا أرباب السجون. ومع بهجة الانتصار الذي كان يعم معظم أطياف الشعب المصري، كان الخوف يتملكني والتوجس يتربص بي في كل خبر أستمع إليه. كانت صورة سوريا ولمى في ذهني دائمًا. كانت الأمور بالنسبة لنا مختلفة، كنا نخشى ونساءل أنفسنا ما الذي سيحدث بعد ذلك؟ هل سيفرض السلاح سلطته فيدفع المجرَدين من سلطتهم إلى استخدامه طمعًا في استعادة ما سُلب منهم؟ أم أنهم سيعودوا إلى رشدهم ويصححون أخطاءهم ويتطهرون منها ثم يعودون إلى الشارع مثلهم مثل باقي أطياف الشعب في ظل فرص متساوية وسباق جديد.

الأحداث بعد بضعة أيام كانت هادئة خالية إلا من بعض المظاهرات، فشعرتُ بالطمأنينة وهدأت تخوفاتي قليلًا، وعُدتُ أفكر في لمى طويلًا، كنت قد عقدت العزم أن أسافر إليها عندما تهدأ أحوال البلاد. وبالفعل قررت السفر.

أرسلت إليها رسالةً هاتفية في صباح من الأصباح المُلهمة، قلتُ لها (الحياة لا تفرض علينا شيئًا، نحن من نفرض الأشياء على أنفسنا).

بعد أن انتهيت من الرسالة، أخبرت أهلي أني مسافر لحضور بعض التدريبات الخاصة بالكلية، ولم أكن أكذبهم القول فكان لدي بعض التدريبات، لكنها كانت بعد بضعة أسابيع.

-ومتى ستعود؟

-لا أعلم

هكذا سأل والدي، وبهذا أجبتُ.

الحنين إلى لمى، هذا هو الشعور الذي كان يتملكني حينها، تمنيت لو أن القطار يطوي الأرض طيًا حتى أصل إلى هناك. انقضى على فراقنا نصف شهر في ميقات الناس، أما في ميقاتي فظننتُ أن شهورًا قد انقضت وسنوات ولت منذ ذلك اليوم الذي ودعتها فيه.

كان الوقتُ عصرًا عندما وصلتُ إلى هناك، عندما دخلتُ المنزل شعرتُ بالطمأنينة، وعندما حل المساء كنت قد انتهيتُ من إفراغ حقيبتي وتناول طعامي.

تقابلنا في ذلك اليوم، شعرت عندما رأيتها أني مريضُ وأن دوائي سيكون دومًا بقربها. تمنيت أن أحتضنها لولا ذلك الخواء والفراغ الذي يحول بيني وبينها، أي والله، لولا ذلك الفراغ لارتميتُ بين ذراعيها ارتماءة طفل بين ذراعيَّ أمه الحنون. كانت هي الأخرى مبتهجة، هي تغيرت بلا شك، كنت أقارن صورتها وحالتها خلال الشهور الماضية بما وصلت إليه حينئذٍ،

فما كنت أستوعب أن تلك الحالتين والصورتين لشخص واحد. الحب يُغير جوهر النفوس، هكذا قال صديقي عُمر.

على الرغم من ابتهاجها بي لما رأتني، لكنها كانت في ذلك اليوم كثيرة الشرود، فلم يكن ذهنها حاضرًا معي كما كانت من قبل، شعرتُ أن هناك أمرًا آخر يحول بيني وبينها غير ذلك الخواء.

-ما بك؟

-لا شيء.

-لكني أشعر أن بكِ شيء ما.

-ربما أكون حزينة على فراق رنا قليلًا.

-متى جاءت؟

-جاءت أول أمس وغادرت بالأمس.

لم يكن من الهين أن استسيغ ذلك المبرر الذي ساقته لي، فهي لم تكن حزينة هكذا عندما فارقت رنا بعد أول لقاء بينهما في مصر. هناك شيء آخر، قلتُ لها ذلك لكنها أنكرت، فألححتُ عليها كثيرًا، فأنكرت مجددًا.

لما ساد الحديثَ التوترُ بيننا، فضلتُ أن أنهي الحديث معها عند هذا الحد حتى لا يؤدي ذلك التوتر إلى أول خلاف بيننا

خاصة أني لم أتمالك أعصابي وقتها بسبب إصرارها المتواصل على كتمان ذلك الشيء الذي يستحوذ على تفكيرها، فقلتُ لها:

-دعينا نؤجل حديثنا للغد.

كان هناك شيء ما يستحوذ على تفكيرها، فلما سألتها عن ذلك الشيء، شعرتُ من نظراتها إليَّ أنها غاضبة مني، كانت حنونة في غضبها أيضًا، حتى غضبها كان حنانها يطغى عليه، فكان أقرب إلى العتاب منه إلى الغضب. إلا أنني شعرت رغم هذا أني اقترفت خطأً عظيمًا، لكن يا ليتني أعرفه. فعقاب أول خطيئة ارتكبها الأب آدم لم يتم إلا بعد أن واجه اللهُ آدمَ بخطيئته، فأخبره بها ثم أخبره العقاب. أما تلك الفتاة فلا هي أخبرتني عن خطيئتي ولا هي أخبرتني عن العقاب. بل جعلت الأيام تُزيح الستار عن ذلك العقاب فتمثل في الهجر والحرمان بضعة أيام.

في صبيحة اليوم التالي، علمتُ أني كنتُ قاسيًا في إلحاحي عليها، فعقدتُ العزم أن أعتذر لها عن ذلك عندما نتقابل في الشرفة ليلًا. على أن أكون أكثر رحابة معها حتى تلين لي وتخبرني عن ذلك الشيء الذي يحزنها.

جاء والدها إلى شقتنا في ذلك الصباح ليدعوني إلى الغداء معهم، فقبلتُ ذلك بعد أن ألح الرجل كثيرًا إلى الحد الذي

جعلني أشعر أنه سيغضب حقًا إذا ما ظللت متمسكًا برفضي دعوته. قال لي:

-لا تجعل الأمور هكذا بيننا، أنت لا تشبه والدك... وليكن في علمك أنك ستأكل معنا طالما أن أهلك ليسوا معك.

كان الذهاب إلى هناك شيئًا ثقيلًا على قلبي، ولم يكن بالأمر الهين، خاصة بعد أن نشب ذلك الخلاف بيني وبين لمى في اليوم الماضي.

ذهبتُ إلى هناك وأنا في غَلَبة من أمري، لكن حفاوة الرجل وكرمه قد خففا عني في ذلك اليوم.

كان واضحًا أن زوجته أمرأةً تكن له خالص الحب والاحترام، كان ذلك جليًا وواضحًا في اهتمامها ورعايتها الزائدة به. وكان واضحًا في عينيها أنها سعيدة في حياتها مع هذا الزوج الجديد، وأنها قد نسيت أو تناست كل الذي حدث لها في سوريا.

أما الرجل فكان حنونًا على تلك المرأة كما أنه كان حنونًا على مروان ابنها فيظن من كان يراهما في تعاملهما أن مروان هو ابن مخلص لذلك الرجل وأن ذلك الرجل هو أب حنون لهذا الطفل الصغير

وعلى الرغم من أن لمى كانت منعزلة قليلًا عن باقي أفراد تلك الأسرة، وكأن إنعزالها هذا تعبيرًا على رفضها أن تأخذ أي أمرأة مهما كانت مكانة أمها، إلا أن علاقتها بتلك المرأة كانت

جيدة، فكانتا على وفاق دائمًا، وكانت تلك العلاقة كعلاقة فتاة بأختها الكبرى.

عندما كنت ألاحظ الخيوط الأسرية القوية التي تربط هؤلاء الأفراد، كنت أدرك مدى خطأي وأستهين به عندما ظننت في أول عهدي بتلك الأسرة أن أفرادها يعودون لأم وأب واحد.

جلستُ مع والدها بعضًا من الوقت قبل أن تنتهي أم مروان ولمى من تجهيز مائدة الطعام، كانت لمى تروح وتغدوا علينا في حجابها وملابسها المحتشمة، فكانت تبدو لي كملاك أو قديسة، ما هبطت إلى الأرض إلا لُتزيل عن البشر همومهم وآلامهم. كنت أنا البشر وكانت هي القديسة.

ما أجمل هذا النوع من الجمال الذي يمتزج بالحشمة ويتزين بالحياء، وما أروع أن يكون هذا الجمال في الداخل أيضًا. قالت لي يومًا أنها لم تتطلع يومًا لأن تكون غنية أو صاحبة منصب رفيع. قالت كل ما أتمناه أن أكون فتاة ذات نفع حتى لو سأعيش في كوخ من أعواد الخيرزان، وحتى لو لم يعترف أو يلاحظ أحد مدى أهمية ومنفعة العمل الذي أقوم به، كل ما أتمناه أن أكون ذات نفع فقط. فتيات الشرق لا تفكر هكذا. قلت لها ذلك. فأومأتْ برأسها في أسف.

انتزعتني رائحة الطعام الشهي من شرودي أثناء ما كانت لمى تروح وتغدو بالأواني فتضعها على المائدة، هي تحاشت أن تنظر إلي، تجاهلت وجودي كأني لم أحضر بعد، فأيقنت أن

حديث الأمس قد وقع في نفسها موقعًا سيئًا، فتمنيت قدوم الليل، وتمنيت أن تغفر لي خطأي عندما نتقابل.

تحدثتُ مع الرجل عن سوريا وأخبارها، قلت له:

-الأمور متأزمة هناك.

-نعم، كنا نظن الأمر أسهل من ذلك.

-ندمت على تأييدك لخروج الناس ضد بشار؟

صمت الرجل كأنه كان يفكر في هذا الأمر من قبل، تفكر قليلًا، ثم قال:

-الأمور الآن أصبحت كارثية... الوطن يكاد يتلاشى.. كنا نظن أن الجيش سيضحي ببشار من أجل وحدة الشعب، لكنه لم يفعل ذلك... لقد تعلمتُ درسًا قاسيًا يابني وهو أن يكون لنا وطن رئيسه طاغية خير لنا من أن نبقى بلا وطن!

كان الرجل يتحدث بألم وحسرة، كان منكسرًا، وكان غمه باديًا في نبرات صوته الحزين. لم يمر وقت طويل على جلستي معه، دعتنا المرأة إلى الطعام سريعًا، وجلستُ مع الأسرة وجلست لمى، فارتبكتُ أثناء تناول طعامي. المائدة كانت غنية ممتلئة بشتى أنواع الطعام السوري، مقلوبة ورق العنب، وشيش، وكبة دجاج. لكني لم أستطع تذوق حلاوة ذلك الطعام، بل لبثت أسترق النظر إلى تلك الفتاة التي ظلت تتجاهلني طول لقائي بهذه الأسرة.

مرت ثلاث ليال لم تخرج لمى خلالها إلى الشرفة، بينما استمر والدها فيما اتخذه على نفسه من عهد، فكان يرسل إلي الطعام من وقت لآخر. أخبرته آخر مرة أني سأعود إلى أسيوط في الصباح الباكر.

كانت تلك مناورة مني حتى يصل هذا الخبر إلى مسامعها، لعل قلبها يلين فتخرج إلى الشرفة في تلك الليلة الأخيرة. خاصة أن هاتفها كان مغلقًا طوال تلك الفترة.

لم يكن حديثي الأخير معها فظًا إلى هذا الحد الذي يجعلها تهجرني كل تلك الأيام، هناك شيء آخر غير هذا الذي حدث بيننا. كان هناك شيئًا لا أعرفه. شعرتُ بالصدمة عندما خرجتُ في ليلتي الأخيرة، ولم أجدها. كانت شرفتها مغلقة، غارقة في ظلام دامس فأضافت إلى قلبي ظلمة ووحشة.

فكرتُ كثيرًا في ذلك اليوم، كانت رأسي تمور وتغلي بالأفكار والخواطر كأنها قدر يغلي ماؤه تحت لهيب النار المتأججة، قلت في نفسي يستحيل أن تكون تلك النهاية، قد تهدأ وتعود إلى رشدها، أو ربما تمر الأيام فتكشف لي عن ذلك السبب الذي جعلها تمتنع عن رؤيتي.

ظننتُ أني لم أعرف تلك الفتاة حق المعرفة. استصغرتُ عقلي وشعرتُ بالندم عندما تذكرتُ أني ما جئتُ إلى هنا إلا لرؤيتها. وتمنيت أن تعود بي الأيام فأمكث بين أهلي وأصدقائي، ما هذا العته الذي دفعني إلى المجيء إلى هنا ما دام هناك عدة أيام على بداية تلك التدريبات.

في تلك الليلة عندما شرعتُ في تجهيز حقيبتي شعرتُ أن الهم والحزن يكادان أن يخنقاني. تركتُ الحقيبة جالسًا على الكرسي الذي كان ورائي، ألقيتُ بجسدي عليه، كأني ما عدتُ أتحمل هذا الجسد الذي أرهقه التفكير والقلب الملوع بنار الحب.

لم أنم في تلك الليلة، ظللتُ على الفراش حزينًا أفكر في ذلك الأمر حتى أدركني الصباح، فنهضتُ أعد نفسي للرحيل. ظننتُ في ذلك الصباح أن كل الأشياء التي كانت جميلة ومبجهة بعد وأثناء معرفتي لها، أصبحت أشياءًا رمادية محزنة، فرأيتُ في ذلك الصباح أن كل الألوان تحولت لألوان رمادية باهتة، لا معنى لها.

عندما وصلتُ القرية كان الطقس خانقًا، وكانت الشمس فوق الرؤوس تُزهق في نفوس الناس كل مشاعر الصفاء والدعة.

بنيتُ على تلك الفتاة آمالًا كثيرة، دلتني على الحب بعدما ضللتُ، وجعلتني أؤمن به بعدما كفرت. لكنها تخلت عني بعد أن آمنتُ بالحب معها.

مكثتُ في منزلي يومين، أفكر في أمري، وأحتار فيه. عندما ألحت علي دينا لتعرف ما حدث، حكيتُ لها، فاحتارت، قالت كأنها تطمئنني:

-ستكون غاضبة منك لسبب تافه.. لا تقلق.. ستخرج إلى الشرفة لما يهدأ غضبها.

في اليوم الثالث، رن هاتفي، ورقص قلبي فرحًا عندما وجدتها تحدثُني. طلبت مني رؤيتي، فذهبتُ إليها في اليوم التالي عاقدًا الأمل أن تعود الأمور إلى طبيعتها، وتعود الشمس إلى مداراتها المرسومة.

كان وجهها شاحبًا في تلك المرة، ألقيتُ عليها التحية، فردت باقتضاب، لما اعتذرتُ لها قالت جملة واحدة. (أنا لم أحبك قط). نظرتُ إليها في وجوم، شعرتُ أني لا أرى شيئًا إلا السواد، كنت حقًا لا أرى شيئًا، تدفق الدم بغزارة إلى وجهي فانطفأت الأشياء من حولي، وما عدتُ أرى إلا السواد.

(أنا لم أحبك قط). لكن ما هذا الشوق الذي كنت أراه في عينيك كلما تقابلنا، ما هذه التلقائية التي كنتِ تتحدثين بها

معي، ما هذا الغضب الذي كان يجتاحك عندما كنتُ أغيب عن الشرفة يومًا أو بعض يوم، أخبريني ما لهذا التهكم لا يخرج بين ثنايا حديثك إلا عندما كنتُ أحدثك عن إحدى تلك الفتيات التي كانت تعجبني.

(أنا لم أحبك قط). قالت تلك الجملة بفتور، كأنها اعتادت قولها آلاف المرات، وكمن يسقط من على جرف هاو، سقطتُ في غياباتي. وغاب عني ميقات الأيام والشهور. كنت حزينًا على فراقها وحزينًا على حبي لها، لم تنجح أختي في مواساتي كنت أستمع إليها في صمت.

–لمى تحبك يا مُهاب، ولا أعلم لماذا فعلت ذلك، لكنها تحبك!

نظرتُ إلى عينيها. شعرت أنها تنطق صدقًا كما شعرتُ أن لمى تحبني من قبل، أحكامي على الناس كانت في غير موضعها، ففقدت الثقة في نفسي وفي أحكامي على من حولي.

تركتها في الشرفة ودخلتُ إلى غرفتي. شعرتُ أني مَلكُ قد جُرد لتوه من تاجه وألقابه وزج به في السجن، كان في أعلى عليين فأصبح في أسفل سافلين.

الفصل الخامس عشر

مرت الأيام وتراكمت الأسابيع، واحتل الحزن والهم قلبي حتى ظننت أنهما لن يفارقاني. لكني تحاملتُ على نفسي، وتبرأتُ من ذكرى تلك الفتاة مستعينًا بالأيام. بعد مرور شهرين، كادت حالتي تتحسن، رغم أن آخر جملة نطقت بها ظلت تتردد في مسامعي لمدة أربعة أشهر تقريبًا، كان جحودها وحديثها الصادم هما ما جعلاني أتخطى ذكراها سريعًا. قال جدي عندما علم ذلك (كما تدين تُدان) كأنه يقصد إسراء، صمتُ، شعرتُ أني لا أقوى على الحديث أو الدفاع ففضلتُ الصمت.

لم أذهب إلى شقتي في السادس من أكتوبر منذ ذلك اليوم المشؤوم، كنتُ من أوائل خريجي دفعتي فمكثتُ في قريتي أنتظر قرار تعييني من الحكومة، حتى تلك التدريبات والشهادات المُكملة لشهادتي الجامعية، كنت أسكن خلال إجرائها في شقة مع صديقاي عُمر وطارق.

كانت في مصر القديمة، قريبة من حي الحسين، فكنا بعد عودتنا من التدريب، نخرج إلى شوارع القاهرة القديمة، وكنت أعتبر تلك النزهات كشيء من فترة النقاهة التي أعددتها لنفسي حتى تنتهي ذكرى تلك الفتاة من أعماقي إلى الأبد. كنتُ كمن

يطبب روحه، فأتجنب ذكراها، كما كنت أحاول جاهدًا أن أقصر تفكيري على الوظيفة التي ستوظفني فيها الحكومة.

أخبرتني دينا بعد مرور هذين الشهرين، أن لمى ترغب في الحديث إلي، شعرتُ بالغضب الشديد وتكدر صفاءي المزعوم عندما ذكرت اسمها، كانت كمن يفتح جرحًا قديمًا إلتأم مع مرور الأيام. قلت لها لا تحدثيني عن تلك الفتاة أبدًا.

مرت الأيام في حياد معي، فما عدتُ أفرق فيها بين حزن أو فرح، اللهم إلا تلك الخروجات التي كانت تجمعني بالأصدقاء. كنا نخرج دومًا للسير بين شوارع القاهرة القديمة بين مآذنها ومقاهيها، وعندما تكل أقدامنا نجلس آخر الأمر على إحدى مقاه حي الحسين فأشعر أني عُدت ألف عام في ذلك الجو القاهري الساحر. الهروب إلى الماضي حيلة رائعة لأمثالي، وما أجمل هذا الماضي الذي لجأت إليه. قال طارق بينما كنا هناك:

-الحب يُدير ظهره للمؤمنين به!!

-ممكن!

أكمل طارق:

-لا.. الحب أسطورة أوجدها أمثالكم.

قلتُ:

– وجود العشاق دليل على وجود الحب. العيب فينا وليس في الحب.

قال عُمر:

–الحب موجود، وإذا لم نوجده، فإننا نتخيله. هكذا قال القباني.

(من كان يراك وقتها كان يظن أنك ستهلك لفراقها)، قال طارق ذلك. كنتُ جالسًا معه ومع عُمر في مقهى الفيشاوي، قلت له:

–النسيان نعمة!

صمتوا قليلًا، كان طارق يدخن النرجيلة بينما كنا نحتسي الشاي الممزوج بأوراق النعناع الأخضر. رن هاتف عُمر، فأجاب إجابة مقتضبة ثم قام وتركنا. سألته:

–إلى أين؟

–لحظة واحدة.

تحدثتُ مع طارق عن التعيينات التي طال انتظارها، ثم وجدتُ عُمر مصاحبًا والدي، ويقترب منا. كان طارق يجلس في قبالتي، نبهته بقدوم والدي، فأبعد النرجيلة عن مجلسنا قليلًا، ثم قام لتحيته.

والدي جلس معنا بعض الوقت، ثم اصطحبني معه بعيدًا، سأل:

-كيف حالك هنا؟

-بخير

سألته:

-أهناك شيء ما؟

-لا يا سيدي وجدنا هاتفك مُغلقًا منذ يومين فأردتُ أن أعرف ما الأمر.

-نسيت أن أبلغك أني سأغلقه.

-لماذا تغلقه؟

سألني ذلك السؤال بينما كنا نستعد للجلوس على أول مقهى صادفنا، بعد أن تركنا المقهى الذي يجلس عليه الأصدقاء. كانت لمى قد هاتفتني منذ أيام بعدما حدثتني أختي عن طلبها الحديث معي. كان صوتها حزينًا إلى الحد الذي جعلني أفكر في الرد عليها، لكني أنهيت المكالمة، ثم أغلقت الهاتف بعدها.

عندما سألني هذا السؤال، أجبته أن وقتي كله رهن الدراسة والتدريب. ثم أكملتُ:

-المكالمات كانت تضيع الكثير من وقتي، ففضلت إغلاقه تلك الأيام.

-لكني أعلم أن هناك سببًا آخر.

نظرتُ مبهوتًا إلى كوب الشاي الذي وُضع أمامي، ولازمتُ الصمت، فباغتني قائلًا:

-تركتك تسكن مع أصدقاءك.. حتى تهدأ قليلًا، وتنسى ذلك الشيء الذي يحزنك. وقد مر الآن بضع شهور على فراقك لنا، وأنت الآن في تحسن مستمر لذلك يجب أن تعود لتسكن معنا من جديد.

كان يتحدثُ كأنه يعرف كل شيء! لكنه لا يقول أي شيء، كان حذرًا في كلامه وحديثه معي، أخبرته:

-لا يوجد ما يحزنني... جلستُ هنا حتى أكون قريبًا من الأماكن التي أتدرب فيها.

كانت هذه هي الحجة التي أقنعته بها منذ البداية من أجل السكن في القاهرة بدلًا من الانتقال بينها وبين مدينة السادس من أكتوبر جيئة وذهابًا، خاصة أن أوقات الدراسة كانت تختلف عن أوقات المحاضرات التي كانت غالبًا ما تبدأ في التاسعة وتنتهي في الثالثة، فكانت أوقات تلك التدريبات تتراوح بين التاسعة صباحًا حتى السادسة والسابعة مساءًا، فما كان لي-لو مكثتُ في مدينتي- إلا أن أعود لأنام فقط، ثم أنهض إلى القاهرة مجددً.

ذكَّرتُ والدي بتلك الحجة مجددًا، فصمتَ كأنما أيقن أنه لا سبيل له بإقناعي بالعودة إلى هناك مجددًا. تركني الرجل بعدما أخذ مني وعدًا بأن أعودهم خلال الأيام التالية، فوافقت. (لا بأس أن أبيت هناك ليلة أو ليلتين دون الخروج إلى الشرفة). هكذا قلتُ في نفسي. ما أيسر الكلام!

كان الذهاب إلى هناك كذهاب شخص إلى حانة خمر بعد أن انقطع عن تناولها حينًا. وكنت رغم ذلك أعلم أنه لا مفر من السكنى بين أهلي وفي منزلي مهما طال البعد ومهما بَعُد اللقاء، لكني لم أكن أعلم متى يكون هذا الأمر، فتلك الفتاة أصبحت دخانًا يتلاشى من بين ضلوعي وأحلامي، لكني ظللتُ أشعر أن فكرة العودة إلى هناك مُحرمة عليَّ.

لم أنفذ ذلك الوعد الذي آخذته على نفسي أمام أبي. تذرعت لمدة شهر كامل بعدة ذرائع مختلفة، غضب والدي ووالدتي حتى عندما جاء قرار تعييني في الهيئة العامة للاستعلامات لم يُهنئاني. هنأتني أختي وهمست لي بأنهم غاضبين مني. شعرتُ أني سأخسر كل شيء بسبب تلك الفتاة، فتشجعتُ وذهبت إلى هناك.

عندما رأتني والدتي ارتميت بين أحضانها، كان لقاءًا حميمًا. شعرت من نبرة صوتها أنها حزينة بسبب مكوثي بعيدًا عنها.

أخبرتها أن الأمور أصبحت أكثر تعقيدًا بعد أن تم تعييني في القاهرة.

(المهم لا تنقطع عن زياراتنا) قالت ذلك بتسامح، فوعدتهم مجددًا أن أعودهم في كل إجازة أسبوعية، وجاء الرجلُ وامرأته ليهنئاني، كنت أخشى عندما رأيتهم عند الباب أن أجد لمى تدخل وراءهم، لكني حمدتُ الله عندما رأيتهم يدخلون دونها.

عندما جلس الرجل وامرأته خاض والدي متعمدًا الحديث عن لمى، كأنه يريد مني أن أستمع إلى أخبارها من والدها، فاستأذنت الجالسين وانصرفتُ إلى غرفتي. كنت أشعر أن روحها في كل مكان في تلك الغرفة وفي كل الغرف. نظرت إلى الشرفة المغلقة كان الطقس خانقًا، لكنني لم أستطع فتح الشرفة فاكتفيت بفتح الباب الزجاجي فقط.

ظللت ليلة واحدة مع أهلي، ثم عدتُ إلى منزلي في القاهرة القديمة. ربما يكون مر أسبوعًا أو بضعة أيام، ووجدت أختي تهاتفني باكية:

-ماتت التي كانت تمنعك من زيارتنا.

عندما قالت ذلك، مات كل شيء في داخلي، ماتت الحياة، سكنت الأصوات، وأسودت الأشياء، ثم رحت في دوامة من العدم.

الفصل السادس عشر

لم أفقد الوعي لكني فقدت بشكل جزئي الشعور بما حولي، فكنت أمر بحالة من الهذيان. وجدتُ طارق وعُمر بجواري بعد أن سقط الهاتف من يدي. أمسكوا بي ووضعوني على السرير، كانوا يتلفظون ألفاظًا لم أسمعها، كنت أنظر إليهم وشفاههم تتحرك كأنهم كانوا يحاولون معرفة ما حدث.

الموت، الموت، رأيتها تبتسم وتنظر إلي، ظلت معي طوال تلك الليلة، قالت لي:

-استجاب الله دعائي!

كانت تضحك بصوت عالٍ وكنت أبكي وأنتحب على موتها. غابت عني ثم عادت وقالت:

-لا تبكِ!

غابت ثم جاءت مجددًا، همست في أذني:

-كنت أتمنى أن تستمع إلي.

وبكت.

سمعتُ والدي ينادي علي، فتحت عيناي، كان الدمع يمنعني من رؤيته، قال:

-مُهاب... هيا لنحضر الجنازة.

لم أرد عليه، نزل عني الدمع مجددًا. ربت على رأسي، ثم شعرت بخروجه. دخلت عليَّ لمى وهمست في أذني فقالت:

-هيا يا مهاب لتشيعني.

أفقتُ مجددًا على أحد ينضح الماء على وجهي، كان والدي وبجواره عُمر، قال الرجل بحزم:

-مُهاب... هيا ستفوتك الجنازة.

كانوا فوق رأسي يتحدثون، أذناي لم تستوعب حديثهم، اسمي فقط استطعت تمييزه هذه المرة. مهاب... مهاب... الموت ينمو في الأحياء حتى يستحوذ عليهم... مُهاب! هيا لتحضر جنازتي.

كنت منهوك القوى، حركني والدي، ثم تركني، لم أعلم وقتها أهذه أوهام أم حقيقة لكني وجدتُ نفسي على فراشي في منزلي، كانت أمي تجلس عند رأسي، عندما نظرتُ إليها نزل الدمع من مُقلتيَّ دون إرادتي، لم أستطع النهوض، شعرت بعد ذلك برجل يضع شيئًا في ذراعي ثم تاهت صورته وسط الظلام، ثم رأيتُ لمى أمامي.

-مهاب... هيا لتودعني!

شعرتُ أني استجمعتُ شتات عقلي ورفات قوتي في الإفاقة التي تلت رؤيتها، كانت الغرفة مظلمة عندما استيقظتُ، شعرتُ بحركة ما بجواري، فأدركت أنها والدتي عندما وضعتْ يدها

على جبهتي، كانت تجلس فوق رأسي كما كانت في آخر إفاقة. رفعتُ رأسي بإنفعال، فأرجعتها والدتي إلى الفراش برفقٍ، قالت:

-استرح قليلًا... أتريد أن أحضر لك شيئًا ما؟

-الجنازة.

-تم تشييعها بالأمس... استرح الآن.

تذكرتُ الجملة التي قالتها لي في أضغاث أحلامي. (الموت ينمو في الأحياء حتى يستحوذ عليهم). شعرت حقًا بموتها أن الموت يمكث في داخلي، ويوشك أن يستحوذ عليَّ.

لبثت في فراشي يومين كاملين، فكرتُ فيها كثيرًا بعدما أفقت، ما هذا الشيء الذي كانت تريد مني أن أعرفه منها، ولو أنني استمعتُ إليها هل كانت ستكف عن الانتحار أم ماذا، كنت أشعر بغصة في قلبي كلما خطر لي أنها كانت تحتاج إلي قبل موتها، وظننت طوال الوقت أن لي يدًا في انتحارها.

ها أنت أيقنت بعد وفاتها أنك كنت تتصنع نسيانها طوال تلك الشهور الفائتة، برغم أنها قالت لك صراحة أنها لم تحبك على الإطلاق، إلا أن بذرة حبها ظلت راقدة بين ضلوعك حتى بعد أن أحرق الغضب أوراق تلك البذرة وجذورها. ها أنت يا مُهاب أيقنت أننا قد نبحث عن الحب وربما نتجنب الوقوع بين مخالبه، لكننا لا نستطيع أبدًا إخراجه من قلوبنا بعد أن يستحوذ علينا.

جاءت إلي أختي في ذلك اليوم بينما كنت شاردًا غارقًا في همومي وأفكاري. كانت حزينة مثلي على فراق لمى، بعد أن توطدت علاقة الصداقة بينهما خلال الفترة التي قاربت عامًا ونصف، سألتني:

-كيف حالك؟

كان صوتها الضعيف جديرًا بأن يجعلني أتخيل مدى الحزن والهم الذي انتابها خلال اليومين الفائتين.

جلستْ على الكرسي قرب فراشي ونظرتْ إلى الشرفة المفتوحة دون حديث إلى أن قلت لها:

-انتحرت وهي غاضبة مني.

-لكنها لم تنتحر!

نظرتُ إليها في تفكر وانتباه، ثم سألتها:

-كيف ماتت؟

-كانت مريضة... ماتت بسبب المرض.

-ماتت بسبب المرض؟!

-نعم!... لماذا ظننت أنها انتحرت؟!

تمهلتُ قليلًا، ثم أجبت:

-مجرد تخمين!

كنتُ مرتبكًا بسبب تلك الأخبار التي تتلوها دينا على مسامعي، نظرتُ إلى وجهها الذي كان باهتًا كالكركم، وسألتها:

-كانت مريضة بماذا؟

-كانت مريضة بالإيدز.

سألتها بإنفعال:

-لماذا لم تخبريني قبل موتها؟

-لم يعلم أحد بحقيقة مرضها هذا إلا بعد وفاتها.

أخبرتني أنها لم تعلم أيضًا بحقيقة هذا المرض إلا بعد وفاتها، ففي آخر أيامها لازمت الفراش، لكن والدها لم يخبر أحدًا عن السبب الحقيقي لهذه الملازمة، قالت:

-كان وجهها شاحبًا وكنت أرى أنها مستسلمة تنتظر الموت، حتى أنني ظننت بعد موتها أنها كانت تعلم حقيقة المرض الذي أصابها.

كانت تلك الحقائق مُربكة لي، لم أكن أعلم هل لنفسي أن تهدأ؛ لأني لم أكن سببًا في موتها، أم أن لنفسي أن تجيش بالهم والحزن لفقدانها.

لم تهدأ نفسي مع مرور الأيام، ولم يفارقني الهم والحزن لمجرد أني لم أكن سببًا في موتها، بل كل ما كُشف عني هو مجرد الشعور بالذنب تجاهها، لكن ذلك الهم والحزن ظلا في قلبي، ليس فقط لشعوري بأني فقدتُ تلك الفتاة إلى الأبد، بل أيضًا لأن فتاة طيبة كلمى فارقت الحياة في مقتبل شبابها دون ذنب تقترفه. اكتشفتُ أني كنتُ أتمنى مَحياها حتى لو ستعيش حياتها بعيدًا عني، حتى لو لم تكن لي إلى الأبد، كنت أتمنى أن تحيا تلك الفتاة حياة سعيدة.

وصاحب هذا الحزن دهشةً، فكرتُ كثيرًا في سبب مرضها، كيف أصيبت به، وأي شيء كانت تُريد أن تبوح لي به. ظللتُ أفكر فيها، وفي السبب وراء مرضها، كما ظلت تأتي في منامي معظم الأيام، فلا تنقطع عن زيارتي إلا يومًا أو يومين، ثم تعود مرة أخرى. كنت لا أستطيع إدراك أني لن أراها إلى الأبد، كان هناك شعورًا مؤلمًا ينتابني كلما تذكرتُ أنها ذهبت بغير رجعة، وكنت أشعر بالحزن والهم كلما تخيلتُ أن الدود يأكل من جسدها الآن. كان ذلك أول عهدي بالموت، فلعنتُ الدنيا ومن يأمن لها.

إنشغالي مع مرور الأيام كان يزداد بماهية تلك الأمور التي حاولت أن تحدثني عنها قبل وفاتها، كنت أفكر أنها ربما شعرت بقرب موتها، فأرادت مني أن أسامحها على تلك الطريقة الفظة التي عبرت بها عن عدم حبها لي. وقد استحوذ علي هذا التفكير فترة من الوقت، فكانت تأتي إليَّ في منامي، وتطلب

مني أن أسامحها. رأيتها ذات مرة تعدو ورائي، وتقول لي (سامحني يا مُهاب).

كنتُ على الرغم من حبي لها، أحاول أن أُحَكِمَ عقلي في علاقتي بها خاصة بعد موتها، فكنتُ لا أشعر تجاهها بأي سوء، لمجرد أنها لم تحبني، بل كنت ألقي بتلك الملامة على قلبي الذي صور لي أنها تحبني كما أحبها. ظننتُ أنها كانت تريد لقائي لتسمع تلك الكلمات، فذهبتُ إلى قبرها، لألقي عليه تلك الكلمات؛ لعلها تستريح وأستريح!

جلستُ على قبرها عدة ساعات دون ملل، كما كنت أقف معها في الشرفة دون ملل أو سأم، وشعرتُ رغم فراقها أن روحها تسكن في هذا المكان، وأنها تسمع ما أقول. عندما جلست هناك أمام قبرها بكيتُ بكاءًا شديدًا، كأني لم أشعر حقًا أنها ماتت إلا في تلك اللحظة.

حدثتها هامسًا: يا لمى كنتُ أتمنى أن تعيشي حتى تعودي إلى وطنك، كنت أتمنى أن تعيشي حتى وأنتِ لا تحبيني. يكفيني فقط يا لمى أني أحبك، وجودك على قيد الحياة كان يكفيني.... بُعدي عنك يا لمى كان تعبيرًا أجوفًا بأن لدي كرامة، ولو أني علمتُ أنك ستموتين هكذا لظللت بجوارك كأنك لم تقولي شيئًا. أتعلمين أن روحك تسكن في داخلي، وأني ما نسيتك قط. روحك يا لمى تأتي إلي كل ليلة، لتنام بجواري، صورتك لا تفارقني، صوتك يا لمى يظل في أذني لا ينقطع

أبدًا. كنتُ أحبك يا لمى وسأظل على حبي لك حتى أدفن معك، وأنتِ تعلمين أن من يحب شخصًا يغفر له أي خطأ يرتكبه، لكنك لم تخطئي، ولو أنك أخطأتي يا لمى لسامحتك. أتمنى منك أن تغفري لي صدي لك عندما حاولت محادثتي.

ظللت أحدثها في همس إلى أن مالت الشمس إلى الغروب، فكفكفت دموعي ثم تركتها عائدًا إلى منزلي.

****

لما حانت إجازته، استقل الطائرة، متجهًا إلى القاهرة، كانت المرة الأولى التي يذهب فيها إلى مصر. أمنية لاحت في خاطره، فتبدت في عينيه عندما كان ينظر إلى القاهرة من شرفة الطائرة، كان يتمنى أن يزورها في حال أفضل من هذا.

لما هبطت الطائرة، قابله صديقه، اصطحبه في مسكن في مدينة نصر، مكثا هناك يومًا ثم استقلا سيارتهم متجهين إلى أسيوط. في طريقه كان متلهفًا لرؤيتها، لكن هذه اللهفة شابها

القلق، فخشي المفاجآت الصادمة، خشي أن تكون رنا ولمى فقدا الاتصال ببعضهما ساعة خروجهما من سوريا، وخشي أيضًا أن يجد عم رنا قد هجر مسكنه القديم.

وأخذ يسأل هو وصديقه حتى ذهب إلى الشقة التي يرغبها، نقر على الباب في اضطراب، خرج له رجل قصير القامة، أصلع الرأس، نظر في دهشة إلى يحيى، سأله:

-من أنت؟

-يحيى حبيب... سوري...

صافحه الرجل، وطلب منه الدخول، لكنه رفض، أخبره يحيى أنه كان يسكن بجوار رنا، وأنه خطيب صديقتها، ويريد أن يحصل منه على عنوان لها. الرجل أخبره أن رنا في مدينة السادس من أكتوبر، في زيارة لصديقتها، طلب منه العنوان فأعطاه عنوانها.

الفصل السابع عشر

مكثتُ في منزلي فترة من الوقت، ظلتْ لمى خلالها تلازمني في يقظتي وأحلامي، فكنت إذا وجدتُ شيئًا أبهجني تذكرتُ عينيها البنيتين وبسمتها البهية التي كانت تُشرق على روحي فتملأها حنانًا ومحبة. وإذا ما أدركني هم أو حزن كنت أتذكر بكاءها وآلامها يوم حاولت الانتحار في أول لقائي بها فتنقبض روحي وتتوقف مظاهر الحياة من حولي. عندئذٍ شعرتُ أن لمى ماتت لتعيش في ذكرياتي وأعماقي إلى الأبد.

لم تَخُف وطأة ذكرياتي معها إلا باستلام وظيفتي بالهيئة العامة للاستعلامات، فبدأت وقتها أفكر في تلك الوظيفة وفي المهام التي ستخول لي، كأني قد سأمت الحزن فاجتنبته لحظات قليلة.

أحضرتُ حقيبتي، وصافحتُ أهلي وودعتهم. لما أغلقتُ باب الشقة، وجدتُ صوتًا يناديني من شقة لمى، نظرتُ فوجدت رنا مقبلة علي. لما رأيتها شعرتُ بغصة في قلبي، وعاد إلى قلبي الحزن كما كان يوم موتها. قلتُ في نفسي (ربما تعلم شيئًا لا أعلمه).

أي شيء كنتِ تحبيه سيذكرني بك، وسيعيد إلي آلامي وأحزاني، خاصة رنا، التي ظننتُ يومًا، أنها قد تكون سببًا في بقائك على قيد الحياة، وبقائك هنا في مصر، لكنك فارقتيها أيضًا.

قالت، بعدما اقتربتْ، في صوت ضعيف:

-لمى تركت لك هذه الرسالة معي.

نظرتُ إلى يدها الممدودة في ذهول، مددتها ببطئ، سألتها:

-متى كتبتها؟

-قبل أيامها الأخيرة.

رأيتُ الدموع في مقلتيها، تحبسها الحواف من الفيض. أطرقتُ النظر، تذكرتُ نظرة لمى، لما رأت رنا أول مرة، تذكرتُ الفرحة والبهجة التي ولدت في عينيها، وقفزتها من على الكرسي، وتعانقها القوي كأنها تخشى فراقها مرة أخرى.

تذكرتُ تأهب رنا ولهفتها، عندما كانت في السيارة، تنتظر لقاء صديقتها، ودموعها التي كانت تمسحها بيديها، بعد أول لقاء بينهما.

كثيرون يا لمى، كانوا يحتاجون إليك في حياتهم، رنا، وأنا، ووالدك، ودينا...

تركتني رنا، ووضعتُ الأوراق في الحقيبة، وتمنيتُ الوصول سريعًا إلى السكن، حتى أقرأ الرسالة. عندما كنتُ على درج العمارة، قابلتُ شابًا صاعدًا الدرج، سألني:

-الأستاذ طاهر زيدان يسكن هنا؟

كان يقصد أبا لمى، ظننته من لهجته السورية أنه أحد السوريين الذين يسكنون بالمدينة، أومأتُ له قائلًا:

-نعم... الطابق الثالث...

ها هي الحقيقة يا مهاب ستتراءى لك بعد بضع دقائق، ها هي الحقيقة لا تبُعد عنك سوى بضع ورقات. ها هي لمى ربما تخبرك أشياءًا أبت أن تخبرك بها في محياها. ها هي تحكي لك... وهي جيفة ميتة يأكلها الدود. ها هي تنبؤك بما لم تُحط به علمًا.

-*-

عزيزي مُهاب..

كنتُ أتمنى أن تستمع إلي قبل أن يفوتَ الآوان، لكنك تهربتَ مني وتفننت في وسائل الهروب، حتى أني لم أجد بُدًا من أن أكتب إليك تلك الرسالة، حتى تعلم حقيقة أمري، وحتى تطلع على أمور حياتي لعلك تسامحني على ما قلته لك في آخر لقاءٍ جمعني بك.

أظنُك يا مُهاب لن تقرأ تلك الرسالة إلا بعد وفاتي؛ لأني أشعر أن تلك اللحظة قد اقتربت وأوشك أوانها، فأشعر أن عزرائيل يجلس فوق رأسي كلما آويتُ إلى الفراش، وكلما نظرتُ إلى الفراش أخشى النوم كخشية الموت، أخشى أن أنام فأموت وتفوتني الحياة.

من حقك أن تكون مبهوتًا لأنك علمت من قبل أني أتمنى الموت كما يتمنى القتيل أن يبقى على قيد الحياة. لكني يا مُهاب تغيرتُ وتبدلت أحوالي، فما كرهتُ الموتَ إلا في تلك اللحظات التي يقترب فيها مني، وما تمنيتُ الحياة إلا بعدما رأيتك.

عندما كنتُ تزور والديك بعد أن ابتعدتَ زمنًا عنا، كنتُ مريضة في فراشي وكنتُ أتمنى أن تزورني، كنت أنتظر زيارتك يا مُهاب، لكنك لم تأتِ. وأنا الآن أتمنى من الله أن تكون بجواري في لحظاتي الأخيرة عندما أودع تلك الحياة وأغادر هذه الدنيا.

لكني أعلم يا مُهاب أنك لن تأتي، وأني سأموت وأنا في احتياج شديد إليك؛ فأنا أدرك مدى الألم الذي سببته لك، لكني كنتُ مضطرة إلى ذلك. كنتُ مضطرة إلى ذلك رغم أني شعرتُ بالندم بعد ما فعلت فعلتي.

لأني يا مُهاب ما ظننتُ وقتها أن تلك الكلمة ستُحدث في نفسك كل ذلك الأثر.

جئتك يا مُهاب من سوريا وفي داخلي فيروس مُميت، كأنهم بدلًا من أن يقتلوني قرروا أن يقحموا هذا المرض في أعماقي فأظل مُعذبة حتى أتمنى الموت ولا أدركه.

وقبل أن أخبرك يا مُهاب كيف أصبت بهذا الفيروس، يجب أن تعلم أني كذبتُ عليك عندما أخبرتك أن الشبيحة والجيش النظامي قد أطلقوا سراحنا، بعد أن رأوا هوية يحيى، فما حدث غير ذلك. فقد ظللنا تحت قبضتهم عدة أيام. فبعد أن وقعنا في أسرهم أخذوا أبا عمار إلى مكان بعيد، ثم ألقوا بي في غرفة بها عدد من النساء المعتقلات. ظننتُ أن الموت مصيرنا، لكني لم أكن أعلمُ وقتها أن هناك أشياءًا نفقدها هي أسوء وأقبح من الموت.

دخل علينا بضع رجال من أفراد الجيش والشبيحة، وسحب كل واحد منهم امرأة، وذهب بها بعيدًا، كان الصراخ يملأ المكان، وكنت لا أستطيع الصراخ، فقوتي خارت بعد أن فقدتُ أمي. سحبني أحدهم من شعري، وفي تلك الليلة فقدت أمي وفقدتُ أعز ما تملك الفتاة.

كنتُ أشعر بالذل والهوان، وتناوب عليَّ الرجال حتى رحتُ أبحث عن أي شيء حاد لأقتل به نفسي، لكني لم أجد شيئًا. كرهت الدنيا، وظننت أني سأظل هكذا ولن أموت إلى الأبد. ومرت الأيام هكذا إلى أن أغار علينا مجموعة من الثوار، فأطلقوا سراحنا.

كنتُ أتمنى الموت بعد هروبي من بين يدٍ هؤلاء الشبيحة، لكني لم أفكر في قتل نفسي في ذلك الوقت. ولا أستطيع أن أصف لك يا مُهاب مدى الكدر والحزن الذي انتابني، كنت أسأل نفسي كل مساء، لماذا أحيا ولأي شيء أحيا بعد أن فقدت كل شيء. ما جعلني لا أفكر في الانتحار، هو أملي في أن ألتقي بوالدي مرة أخرى.

وبعد ذلك بشهور، وعندما جئت إلى مصر، شعر والدي بتدهور في صحتي، فذهب بي إلى أحد الأطباء، فحولنا إلى طبيب آخر وكان كل طبيب يحول حالتي إلى طبيب آخر وتخصص آخر، حتى ذهبنا إلى طبيب للأمراض المناعية، فأخبرني والدي أن مناعتي ضعيفة بسبب ما تعرضنا له من تنقل وترحال خلال الشهور الفائتة.

أشار لي الطبيب بعدة أدوية ومضادات حيوية، ولما رأيتُ اهتمام والدي الزائد بصحتي، وخوفه علي كلما ارتديتُ ملابس خفيفة أو تعرضتُ لجرح بسيط، أدركتُ أني مصابة بمرض

مخيف. وعلمتُ بعد ذلك أن أبا عمار قد أبلغ والدي بما حدث من اعتداء علينا، كما علمتُ صدفة عندما كان يتحدث والدي مع زوجته أني مصابة بمرض الإيدز، جاء الخبر كالصاقعة، وشعرت أن هناك سمًا يسري في عروقي، ويعمل على إفنائي ببطئ واجتهاد. لم يكتف هؤلاء الملعونون من أن يسلبوا مني عذريتي ووطني وأمي، فقرروا أن يضعوا في أحشائي ذلك السم الذي يقتل ببطء.

ما أفظع ذلك الشعور يا مهاب الذي ينتابك عندما تعلم أن عدوك الذي يرغب في موتك يعيش في داخلك، وما أفظع ذلك الشعور عندما تدرك أن ليس للعالم كله حيلة لإيقاف هذا العدو الذي يعيش في أحشائك.

كان الخزي والهوان يتملكاني، كلما تذكرت أن هذا العالم الذي ينفق أمواله الطائلة على سفن الفضاء وعلى الترسانات النووية، لا يستطيع أن يتوصل لطريقة لقتل هذا العدو الذي يحاول قتلي من الداخل.

وفي اليوم الذي علمتُ فيه يا مُهاب أني مصابة بذلك المرض، فكرتُ في الانتحار، وأدركتُ أن الذهاب إلى الموت أهون من انتظاره. قلت لنفسي وقتذاك أن الله قد يسامحني على ما أفعل. كنت أخشى خسارة الآخرة بخسارة الدنيا؛ لكنني

أوهمتُ نفسي أن الله سيسامحني وسيغفر لي، فهو أعلم بحالي من أي أحد.

وقررتُ القفز من الشرفة في تلك الليلة التي رأيتني فيها، ولا أكذبك القول يا مُهاب أني خشيتُ الموت بمجرد قربي منه. كانت هناك مشاعر متضاربة وأفكار متطاحنة تعتمل في داخلي. كنتُ أشعر أني أنتقم من نفسي، وكنت أظن أيضًا أني أنتقم من ذلك المرض الذي بداخلي.

خشيتُ الموت وأنا على مشارفه، شعرتُ بالجبن عندما وضعت قدمي على الدرابزين، وتوقف جسدي عن الاستجابة عندما هممت بالقفز. وأظنك يا مهاب قد أسديت إلي معروفًا عندما ظهرت في الشرفة؛ لأني ما كنت أستطيع القفز، وأيضًا كنت سأشعر بالخزي أمام نفسي إذا عدلت عن الانتحار من تلقاء نفسي.

ومع وجودك يا مُهاب في حياتي، تغيرت فكرتي مع الوقت. رأيتُ ألا أنتظر الموت، ورأيت ألا أذهب إليه أيضًا، بل قررت أن أتعايش مع ذلك المرض حتى يقضي الله في أمري. وكان

هذا القرار صعبًا يا مُهاب لكنني إتخذته رغم ذلك، وربما تكون سببًا في اتخاذي لهذا القرار يا مُهاب.

فقد رأيت في حنانك واهتمامك بي أنك أنت الملجأ لي من ذكرى الحرب والمرض، فكنتُ استصرخ بك كلما ضاقت بي الحياة، وكنت أستنصر بك على مرضي وعلى ذكرياتي.

تلك هي الحقيقة الوحيدة التي أخفيتها عنك يا مُهاب، ولتعلم أني لم أحاول الانتحار مرة أخرى، وأني سقطت حقًا من الشرفة يوم كنت تقضي إجازتك. أتعلم يا مُهاب أني لما ذهبتُ إلى المشفى بعد سقوطي لم يرغب الأطباء في التقرب إلي عندما علموا أني مريضة بهذا المرض. لقد رفض الأطباء حقًا أن يسعفوني عندما أخبرهم والدي أني مريضة بالإيدز حتى يحتاطوا. لكنهم لم يحتاطوا بل تركوني فترة إلى أن تطوع أحد الأطباء لإسعافي.

هكذا يا مُهاب تعايشت مع هذا المرض، وهكذا تعلقت بك مع مرور الوقت. ربما أكون مخطئة لأني لم أخبرك وقتها أنني مريضة بهذا المرض. لكني لم أعلم مدى خطأي هذا إلا يوم أن علمت من أختك دينا أنك ترغب في الزواج مني.

بكيتُ يا مهاب عندما سمعت من دينا ذلك، بكيتُ شفقة عليك لأنك تعتقد أني سأبقى على قيد الحياة كأي فتاة أخرى، وبكيت شفقة على نفسي لأني شعرتُ بحجم هذا المرض الذي سيمنعني من أن أعيش حياة زوجية بجوار قلبك الحنون. أدركتُ وقتها أني أخطأت في حقك عندما أخبرتك أني أحبك، ولم أخبرك بمرضي الذي سيمنعني عنك إلى الأبد.

وفي وسط انفعالات شتى، قررتُ أن أكذب عليك لمرة أخرى لأخبرك أني لم أحبك قط. كان قرارًا صعبًا علي، لكني أدركتُ يا مُهاب أنه قد يكون الأمثل. فقد خشيتُ عليك يا مُهاب من أن أصدمك بخبر موتي هكذا، كما أنني خشيت عليك أن أتركك في خيالاتك إلى أن تتفاجأ في يوم من الأيام بموتي. فقررتُ أن أقول لك أنني لم أحبك على الأطلاق؛ لعل موتي بعد ذلك يكون هينًا عليك.

لكني يا مُهاب صُدمت بردة فعلك، وحزنت على حزنك الشديد، فرأيتُ أن أمهد لك الأمور، لكنك لم ترغب في مقابلتي، ولا في الحديث معي.

كنت قاسيًا معي، ولما تدهورت حالتي أدركتُ أن الموت يقترب أكثر مما تصورت، فأردت أن أموت وأنا بين يديك، لذلك رأيتُ أن أكتب لك هذه الرسالة، فإن نجحت في أن أتوصل إليك وزرتني، كنت سأعطيك إياها، وإن كانت الأخرى، فقد فكرتُ أن أعطيها لرنا؛ لتسلمها لك؛ حتى تعلم يا مهاب أني لم أحب أحدًا مثلك على الإطلاق.

.....

بكى عُمر بعد أن انتهى من قراءة تلك المذكرات التي وجدها في غرفة صديقه مُهاب، ربتت شروق على كتفه حتى يهدأ، لكنها بكت، ولم تستطع حبس دموعها.

مات مُهاب في أحداث غامضة، هذا اليوم يوافق الذكرى الثانية لوفاته، وهذان الزوجان ظلا على وفائهما لصديقيهما، فاعتادا قراءة تلك المذكرات، كلما حلت هذه الذكرى. قال عُمر في تحقيقات النيابة، أنه بعد أن تسلم مُهاب وظيفته ببضعة أيام، اختلى بنفسه في غرفة مستقلة، وساءت حالته حتى وجدوه ملقًا على الأرض وسط أوراق مذكراته التي كان يكتبها.

انتهت